708

روايات عبير

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Barbara Baker

عاطفة الأبوّة

الأصليّة

روايات عبير

«عاطفةُ الأبوَّة»

«سارة» طفلة وُلدتْ مريضة، افترقت أمها عن أبيها قبل أن ترى النور، لم يعلمْ الأب أنَّ له ابنة. أرادتْ الأم «راشيل» أن تتزوج بأبيه الثري حتى تستطيعَ أن تضمن لابنتها حياة كريمة وصحَّة جيدة. أما والد الطفلة «جويل» هذا الرسَّام البُوهيمي الذي يكره الزواج والأطفال لم تُعْلمه «راشيل» بحَمْلها، وابتعدت عنه وتحمَّلت كل تبعات هذا الحَمْل بمفردها. على الرغم من أنه كان يُحبها دائمًا، وأحبَّ «سارة» أيضًا، وأحبته «سارة» كذلك.

فهل يسْتسلم «جويل» لعقدة كراهيته لموضوع الزواج والأطفال؟ أم أنه يستجيبُ لنداء الحُبّ وحنين الدم؟

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338043 -0
9 789953 380438

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Colose Droximity

تأليف
Barbara Baker

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

www.rewity.com
مرمورية

عاطفة الأبوّة

(708)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: **00 961 9 212 666** – فاكس: **00 961 9 212 665**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

انحرف «جويل» بسيارته عن الطريق الرئيسي عند مفرق «سالتون» واتجه صوب الغرب، الأراضي تمتد كيلو مترات تكسوها شجيرات الوزال الشوكية بخضرتها الدائمة وزهورها الصفراء، تنتثر بينها بعض الأكواخ، يتصاعد الدخان من مداخنها ليكون العلامة الوحيدة التي تنبئ عن وجود حياة. أخذ المساء يخفي أشعة الشمس المائلة ومزيج ألوان الضوء يبدو رائعًا، ومع ذلك، فإن «جويل» - بحاسته الفنية - لم ينتبه لجمال المنظر؛ إذ كان مشغول الخاطر تمامًا... ولم تكد الشمس تغرب حتى بدا الأفق بلونه الشفيف، وبدت النجوم من خلاله كأنها ترتعد. كانت السيارات المقبلة من الاتجاه المعاكس تضطر إلى أن تتخلى عن موقعها في وسط الطريق لسيارته المرسيدس. ولم يكن «جويل» في حالة نفسية تسمح له بأن يتنازل ولو بعض الشيء... كانت معدته تذكره بأنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح، وكان يحس بالظمإ. نظر إلى الساعة الذهبية في معصمه، وكانت قد تخطت السابعة مساء، وأحس بالظلام يرخي سدوله ولم يكن راغبًا في القيادة على ذلك الطريق خلال الليل. وبدأ يدرك أنه أمسى على بعد ثمانية أو عشرة كيلومترات فقط من «لانغتويت». وربما يكون سعيد الحظ، فيجد في الفندق كل ما يريده حتى صباح اليوم التالي. كانت القرية صغيرة، تقوم حول ميدان مستدير، صندوق الهاتف يقبع خارج مكتب البريد قرب المتجر، وأخيرًا الحانة التي تحمل اسم «الديك الذهبي»، وكان كل ما يطمع فيه مكانًا نظيفًا للنوم، وشرابًا باردا ينعشه، وكان هناك شاب أو شابان يتسكعان في الساحة، أثار فيهما منظر السيارة المرسيدس بعض التعليقات الفظة، واضطر «جويل» أن يترك السيارة خارج الحانة داعيا الله ألا يعبث أحد بمسامير صدئة في طلائها، وسأل نفسه: «أين ذهب السحر الريفي القديم الذي كان يحلم به؟» وترك «جويل» حقيبته في صندوق السيارة، وارتدى سترته الصوفية وأحكم رباط العنق وهو يجتاز المدخل المؤدي إلى الحانة، ولم يكن فيها سوى شخص أو شخصين من

الزبائن المسنين. الفتاة التي تقوم على الخدمة كانت في مقتبل العمر، شقراء مفعمة بالصحة بدأت تعير اهتمامها للوافد الغريب ذي البشرة السمراء، وغمرته بنظرة دافئة مشجعة، وقالت له:

– حسنًا يا سيدي، بم تأمر؟ وأخرج «جويل» حافظة نقوده من جيبه الداخلي ثم قال:

– أوه! أي شيء بارد من فضلك. ونظر حوله، ثم سأل:

– أعتقد أنكم تستقبلون النزلاء للمبيت؟ وملأت له الكأس، وناولته إياها، واتسعت عيناها، ونظرت إليه بشيء من الفضول، واستوضحته:

– نزلاء للمبيت يا سيدي؟ أعتقد أن السيد «هاريس» يمكن أن يستقبل زائرا أو زائرين، وإن كنت غير متأكدة. وناولته المبلغ المتبقي له والتقت عيناهما، وهي تقول:

– أتحب أن أسأل لك عن المبيت يا سيدي؟ ووضع «جويل» باقي النقود في جيبه، وقال:

– إذا سمحت! عند ذلك نظرت إليه الفتاة، واستدارت وهي تهز كتفيها وانصرفت. أراح «جويل» جسمه على كرسي مستدير من كراسي الحانة، كان الشراب باردًا لذيذًا ومنشطًا، كما أراده بعد تلك الساعات الطويلة في قيادة السيارة، وخطر له أن «لانغثويت» لم تكن عادة تستقبل غير زائرين قلائل في مثل ذلك الوقت من السنة. ظهرت الفتاة ومعها رجل في أواسط العمر بدا أنه صاحب الحانة، واصطنع «جويل» ابتسامة اعتقد أن الرجل بادله مثلها، واستند «هاريس» بذراعه وهو يسأل:

– سمعت أنك تريد مكانا للمبيت، هل ستطول إقامتك؟ وأجاب «جويل» في هدوء:

– ربما لليلة واحدة فقط! واستفسر الرجل الأكبر سنًا:

– فأنت مسافر على الطريق إذن يا سيدي؟ وهز «جويل» رأسه، ثم أذعن لفضول السائل، فقال:

– إنني في مهمة في «لانغثويت». وأجاب السيد «هاريس»:

– حسنًا، هناك غرفة، وزوجتي تعدها لك الآن، هل نقدم لك الطعام أيضًا؟ كان «جويل» بالفعل يقاسي من الجوع، وأجاب في هدوء يستحوذ على الإعجاب:

– إذا كان ذلك ممكنًا، وتكفيني لهذا المساء بعض الشطائر، وربما يكفي بعض الخبز المحمص للإفطار. عند ذاك ظهرت سيدة ظن «جويل» أنها السيدة «هاريس»، وتحدثت مستفسرة:

– هل هذا هو السيد الذي يريد أن يقضي الليل هنا؟ وأومأ زوجها بالإيجاب، فأضافت:

– حسنًا يا سيدي! غرفتك جاهزة وأظن أنك جائع. نظر «جويل» إلى السيدة «هاريس» وأجاب:

– أنا، حسنًا... وأومأ بالموافقة، وعلّق زوجها:

– نعم يا «إلي»... إن السيد (والتفت إليه مستفسرا) لم أعرف بعد اسمك ياسيدي... (ثم أكمل الحديث لزوجته) إنه يريد الطعام... ورد «جويل» فورا:

– اسمي «كنغدوم»، «جويل كنغدوم»... من «لندن». وصعد إلى غرفته في الطابق الأول، وتناول العشاء في غرفة صغيرة تستخدمها الأسرة عادة، وجاءت السيدة «هاريس» لتقوم بنفسها على خدمته، ولم يكن ذلك ليحرمه من الشقراء التي قدمت له الشراب في الحانة، كانت تلتمس العذر لتدخل فجأة وتخرج بعد أن تسأله ما إذا كان يلزمه أي شيء، كان فمه يبدو عنيدًا ساخرًا بعدما أتى على الوجبة التي قدمتها له السيدة «هاريس» التي دخلت وبدا عليها شعور بالارتياح عندما وجدت الصحون فارغة فقالت:

– أرجو أن يكون الطعام قد أعجبك يا سيدي. وأومأ «جويل» برأسه علامة الموافقة، وقال:

– كان لذيذًا للغاية... شكرًا يا سيدة «هاريس»... وابتسمت وكان وجهها ينم عن سرورها، وقالت وهي تجمع الصحون:

– سوف تقيم معنا إلى الغد فقط؟ ونهض «جويل»، وهو يقول:

– آمل ذلك... أعني بالطبع أن العمل الذي قدمت له ربما لا يأخذ وقتا أطول من

ذلك. تنهد ثم أضاف:

– ينبغي أن أعود إلى «لندن». قالت مستفسرة:

– إذًا... فأنت تعمل في «لندن» يا سيد «كنغدوم»... وأجاب «جويل» بطريقة تنم عن عدم الرغبة في إعطاء إجابة شافية:

– أحيانًا. وسألت:

– ولكنك تسكن هنا؟ وأجاب:

– يمكنك أن تقولي ذلك. كانت السيدة «هاريس» – كما يبدو – تحاول العثور على مدخل لتعرف مهمته، وكان هو من جانبه يحاول التهرب من الإجابة عن مثل هذا السؤال، وقال:

– إذا أذنتِ، سأصعد إلى غرفتي الآن... كان يوما مضنيًا، وأشعر بشيء من التعب. وحاولت السيدة «هاريس» أن تخفي شعورها بالإحباط، وأجابت:

– طبعًا يا سيدي، إنك تعرف المكان. وابتسم «جويل» وقال:

– طبعًا! تصبحين على خير! وظهر عليها الرضا الكامل لطريقته المهذبة في الحديث، وأجابت مبتسمة:

– وأنت بخير يا سيدي. وسلك «جويل» طريقه عبر الردهة إلى الدرج، وظهرت الفتاة الشقراء عند المدخل تقول بشيء من الحياء:

– ألا تأتي لتأخذ شرابًا الآن؟ وهز رأسه وهو يقول:

– لا، أشكرك! وردت في الحال:

– غير معقول... هل تنام الآن؟ وأجاب:

– ولم لا؟ أليست الساعة بعد العاشرة؟ وردت عليه باستغراب:

– يا للغرابة! العاشرة! كنت أظن أن سكان «لندن» يسهرون إلى ساعة متأخرة من الليل! ماذا حدث لسنوات السبعينيات الراقصة المرحة؟ وأجاب بجفاء:

– أعتقد أنها شنقت نفسها.. أسعدت مساء! كان الفراش باردًا كالثلج، ولكن حرارة الأفكار التي كانت تعتمل بداخله ساعدته على احتمال الموقف، تمدد «جويل» على ظهره، وأسند رأسه إلى ذراعيه، وبدأ يحدق بعبوس إلى ظلال الأزهار البارزة على

الستائر المصنوعة من «الكريتون». أخيرًا، إنه هنا في «لانغثويت»، وفي بقعة ما بالخارج... ربما على مسافة كيلومترين... توجد «راشيل»... «راشيل غيلمور» كما تسمي نفسها الآن... وأحس بمذاق الصفراء الكريه في مؤخرة حلقه: «راشيل» تظن أنها تستطيع أن تفعل ذلك... به هو! وتكورت يداه بشدة، وانضغطت كل منهما في قبضة قوية، لو تمكن منها هنا... والآن، لاعتصر عنقها بيديه! ولكن الانفعال كان ضياعًا... إنه يعرف أن الهدوء والموضوعية لهما فعل أوقع، لكن لم يكن بوسعه أن يتأكد تمامًا أنها فعلت ذلك للنكاية فيه، ومع ذلك فأية محاولة لتبرير سلوكها لم تكن شيئًا مستساغًا. كان يعمل في وضع اللمسات الأخيرة للوحة السيدة «أنطونيا باري» عندما جاء «فرنسيس» يدق بابه، كان قد استيقظ في ذلك اليوم مبكرًا عن عمد ليستفيد بالضوء، وصار «فرنسيس» أخوه غير الشقيق، يحكي القصة التي جاء بها إلى «جويل» في تلعثم حتى أكملها، ولكن «جويل» لم يأخذ القصة على أنها ورطة مالية جاء يطلب فيها العون المالي من أخيه، وقال «جويل» بشيء من القلق:

– ولكنني لا أفهم لماذا تظن أن تفكير أبي في الزواج يمكن أن يسبب لي الضيق. عندئذ أخذ «فرنسيس» يذرع بخطواته المرسم، وهو يردد:

– بالطبع لا يهمك... تركت لك جدتك ثروة كبيرة... أما أنا فليس لي أقارب أثرياء من طرف أمي، وإذا تزوج أبي مرة أخرى، فالمنتظر أن يحرمني من الميراث كما حرمك! كان «جويل» قد أخذ يدفع شعره إلى الخلف بيدين مضطربتين، وعلّق قائلاً:

– لكنك لم تكترث عندما حدث ذلك، (وأضاف) كان الأمر يختلف في حالتي وأنت تعلم ذلك، كان أبي يعلم أنني لست أحتاج إلى ثروته، وكما تقول أنت فإن جدتي هوّنت من دور أبي في رسم مستقبلي. أما بالنسبة إليك فالأمر مختلف، إنك ابنه، وحتى ولو تزوج فإن الأمل ضعيف في أن ينجب أطفالا! ألا ترى أنه في الثالثة والستين من عمره؟ وأجاب «فرنسيس»:

– ألا تعلم أن بإمكان الرجل أحيانا أن ينجب حتى ولو كان في التسعين من عمره، ومع ذلك فإنك لم تسمع القصة كاملة بعد، إنك لم تسأل: من تكون المرأة التي ينوي

www.rewity.com

أن يتزوج بها؟ وهز «جويل» كتفيه بشيء من عدم الاكتراث، وهو يقول:

– إن ذلك أمر لا يهم. واستأنف «فرنسيس» الحديث، وهو يتلذذ بوقع كلامه على أخيه:

– ربما يهم، اسمها «غيلمور»... «راشيل غيلمور»... وكان اسمها من قبل «راشيل آبي». عند ذاك فقط حدث ما لم يكن متوقعًا، فقد انطلق «جويل» بخطوات غريبة وفعل ما لم يكن منتظرًا بالمرة؛ إذ أمسك بأخيه غير الشقيق من قميصه، وجذبه تجاهه بعنف، وهو يقول:

– ماذا تقول؟ وقع «فرنسيس» في شيء من الاضطراب، وأخذ يخلّص نفسه وهو يقول:

– هذه... هي... ال... حقيقة... الحقيقة يا «جويل»... إنها، را.. «راشيل»... «راشيل»! دفعه «جويل» بعنف جعله يدور حول نفسه، ويستقر في النهاية على الأرض، وكان وجهه ممتقعا من الغضب عندما نهض على قدميه، وأخذ ينفض التراب عن ثيابه، وهو يحدق إلى أخيه بخبث قائلا:

– إنها ليست غلطتي... فقط لأنك لا تحب الحقيقة... عندما تسمعها. لم يعد «جويل» يسمع. عرف أن ما قاله «فرنسيس» صحيح، وهو لم يكن ليأتي إليه بقصة مثل تلك إن لم يكن لديه البرهان على صدقها، وأخذ يبحث عن سيجار وضعه في فمه، ثم أشعله بيدين تفتقدان الاتزان، وصار يحملق باكتئاب خارج النافذة، كان يطل على شاطئ نهر «التيمز» عبر السطوح. وعندما أحس أنه استعاد بعض توازنه استدار تجاه «فرنسيس» الذي أشعل سيجاره، وأخذ ينفث دخانه بعصبية عندما بادره «جويل» بقوله:

– أخبرني بما تعرفه. وتململ «فرنسيس» وأجاب في دمدمة:

– لا أعرف. وتصلب فك «جويل» وهو يقول:

– لا تحاول أن تخدعني، قل لي كيف عرفت أنها «راشيل». وأجاب «فرنسيس»:

– رأيتها.

– ماذا تعني؟

– رأيتها – أوه، بالله يا «جويل»! كف عن النظر إليّ هكذا! إنها ليست غلطتي – في الليلة الماضية... مع أبي! حقًا. ونطق بالعبارة الأخيرة عندما ألقى «جويل» بسيجاره إلى الأرض، وسحقه بنعل حذائه.

– أين؟

– في «بيروكيوس» يتعشيان.. رأيتهما.. أؤكد لك. كان «جويل» يحرك رأسه من جانب إلى آخر تعبيرًا عن الشك، وقال:

– ابدأ من البداية! أخذ «فرنسيس» يدخن سيجاره بشدة، وهو يقول:

– حسنًا! عرفت منذ وقت، أن هناك امرأة، أوه، نعم، منذ... منذ أن رحلت أمي.. كنت أستطيع أن أعرف ذلك.

– أرجوك... ادخل مباشرة في الموضوع.

– منذ أسبوع، أخبرني أبي بأن هناك شخصًا ما.

– ولكنك لم تخبرني بذلك من قبل!

– ليس فورًا، لا! (قال «فرنسيس» ذلك مدافعًا عن نفسه) كما ذكرت في كلامك يا «جويل»، إن عمره ثلاثة وستون عامًا، وكنت أظن، أن أية امرأة لا يمكن أن تقبل به إلا إذا كانت في مثل سنة! وأنت تعترف كذلك أن أمي وأمك كانتا قريبتين منه في العمر.

– حسنا... استمر!

– الذي حدث هو أنني لم أسأل كثيرًا، ولقد أخبرني، وكان الأجدر به أن يضحك كثيرًا عندما أخبرني... بأن اسمها السيدة «غيلمور»... السيدة «راشيل غيلمور». وأنت تعرف أن اسم «راشيل» ليس اسمًا مألوفًا. وسأل «جويل»:

– هل هذا هو كل شيء؟ وأجاب «فرنسيس»:

– لا! قال إنها قادمة من «يوركشاير»، وإنها تعمل في قرية تسمى «لانغثويت» كمديرة منزل في بيت عقيد متقاعد. وأخذ «جويل» يكرر الكلمات نفسها:

– مديرة منزل في بيت عقيد متقاعد!

www.rewity.com

– نعم، هذا ما قاله لي.

– ربما تكون قد أخطأت.

– أؤكد لك أنني، رأيتها.

– لا أقصد ذلك، إنما أقصد العمل الذي تشتغل به، أنت تعرف يا «فرنسيس» أن «راشيل» كانت تدرس في الجامعة عندما... وأكمل «فرنسيس» الجملة:

– عندما هجرتك... أليس كذلك؟ لكن كيف تعلم إذا كانت قد أكملت دراستها أم لا؟ كان ذلك منذ ستة سنوات... وتزوجت وأنجبت طفلاً. وشحب وجه «جويل» الأسمر، وهو ينطق:

– طفل! هل أخبرك أبي بهذه القصة كذلك؟ وأطفأ «فرنسيس» سيجاره ونظر إلى أعلى وهو يقول:

– نعم، ذلك قد يفسر لماذا تعمل كمديرة منزل، أقصد أنه ليس من السهل أن تجد المرأة عملاً إذا كان لديها أطفال. وضاقت عينا «جويل» تحت رموشه الكثيفة، وهو يسأل:

– وماذا عن زوجها؟ هز «فرنسيس» كتفيه، وقال:

– كيف لي أن أعرف؟ ربما يكون قد توفي، قال أبي إنها أرملة! وخطا «جويل» عبر الغرفة، وهو يقول:

– أرملة... لا أكاد أصدق ذلك، هل أنت متأكد أن هذا كله لم يكن إلا خدعة ماكرة لتحقيق نزواته؟

– ماذا تعني؟ هز «جويل» رأسه وأجاب:

– لا أعرف، كان أبي يكرهني؛ لأنني كنت أعارضه.

– لا أعتقد أن أباك كان يكرهك يا «جويل»!

– بل أعتقد أن رغبته في الزواج بـ «راشيل» لهذا السبب بالذات.

– إنك مجنون!

– هل تعتقد ذلك؟ كانت ملامح «جويل» وهو يتكلم مشبعة بالحقد، وأضاف:

– هل هذا هو كل شيء؟ وأجاب «فرنسيس»:

– ما الذي تريد أن تسمعه مني... بعد ذلك؟

– ما الذي قاله أبي عندما أخبرك؟

– أخبرتك بكل ما أعرف.

– لكنك لم تخبرني، كيف رأيتهما معًا في الليلة الماضية؟ تنهد «فرنسيس»، وقال:

– كان ذلك مصادفة، وأبي لا يعرف أنني رأيتهما.

– وماذا بعد؟

– كنت ذاهبا إلى «فريديز»، وكنت أحتاج إلى المال.

– كالعادة...

– تذكرت «بيري سيمونز» فجأة. كان «بيري سيمونز» صاحب مطعم «بيروكيوس» وكان «جويل» يعرف ذلك أيضًا.

– ذهبت إلى هناك؛ لأني كنت أنوي اقتراض مبلغ من المال، وهناك رأيتهما.

– وتركت المكان؟

– نعم!

– كم كان الوقت عندئذ؟ هنا نظر «فرنسيس» إلى ساعته، وقال:

– حوالي الحادية عشرة.

– ولكن الساعة الآن الثامنة والنصف! إذن ماذا كنت تفعل في خلال تسع ساعات ونصف الساعة؟ هز «فرنسيس» رأسه وقال:

– لم أكن أعرف ماذا أعمل؟ ولم أكن أعرف هل أُخبرك بما حدث أم لا؟

– ولمَ لا؟ هز «فرنسيس» رأسه وقال:

– لقد... سرت... كيلومترات... ووصلت إلى شقتي حوالي الرابعة، وكان بوسعي أن أطلبك بالهاتف عندئذ، ولكنني ظننتك مشغولاً. لم يكن ما يقصده «فرنسيس» بخافٍ على «جويل»، وكانت شفتاه ترتعدان، وألقى نظرة أخيرة إلى اللوحة الخاصة بالسيدة «أنطونيا»، ثم سار عبر المرسم إلى الباب المؤدي إلى الجزء الأساسي من الشقة، وقال بصوت متثاقل:

www.rewity.com

– حسنًا، سأصنع بعض القهوة، أعطيت «هيرون» إجازة الليلة، وعلى ذلك فإنه لن يعود إلا متأخرًا، ويمكننا أن نواصل حديثنا في المطبخ إن شئت. عرف «جويل» فيما بعد أن «راشيل» عادت إلى «يوركشاير»، ووجد أن أباه لم يكن ممانعًا في الحديث عن السيدة «غيلمور» عندما اكتشف أن ابنه الأصغر أخبر «جويل» بالخطط التي كان ينوي السير فيها، واضطر «جويل» أن يمسك لسانه وأن يسيطر على قبضتي يديه، عندما وقف أمام أبيه بوجهه الذي يعبر عن الاعتداد بالنفس، ولو كانت هناك بقية من شك في صدق ما قاله «فرنسيس» لزال هذا الشك تمامًا في أثناء المقابلة التي تمت بينه وبين أبيه. كان «جيمس كنغدوم» راضيًا تمامًا عن نفسه. ووجد «جويل» أن غضبه تركز في «راشيل» بعنف يكاد يصل إلى الرغبة في تدميرها، كيف تجرؤ على ذلك؟ كان يسأل نفسه هذا السؤال مرارًا وتكرارًا. كيف تجرؤ على أن تفعل هذا به؟ لابد من أنها تكرهه الآن كما يكرهها، وتحقد عليه بالدرجة نفسها من الحقد الذي بدأ يشتعل في نفسه إزاءها، ورغم ذلك لم يكن ليسمح بسهولة بأن يحدث ما كان وشيك الحدوث. وجد نفسه يدافع باستماتة عن حقوق «فرنسيس»، ولم يكن ليصرّح بدوافعه الحقيقية التي لم تكن تقل أنانية، لو أن «راشيل» كانت قد تزوجت بالفعل، وأنجبت طفلاً، فهي بذلك قد أثبتت خصوبتها، وأبوه لا يزال قوي الصحة مكتمل الرجولة، كانت زوجتان تكفيان أي رجل في رأيه ناسيًا أنه لو لم تمت أمه عقب ولادته مباشرة لما فكر أبوه في الزواج بأخرى. كان قد مضى على ذلك ثلاثة أيام تمكن «فرنسيس» خلالها من اكتشاف اسم مخدوم «راشيل» هو العقيد «فرنشاو» وعرف أن هذا العقيد يعيش في مبنى الـ «أولدهول» في «لانغثويت» واعتقد «جويل» أن الوصول إلى ذلك المكان لن يكون بالأمر العسير، وحاول بإلحاح أن يستجمع في مخيلته صورة الفتاة التي قرر أن يقترن بها ذات يوم، وكانت السنوات الست التي مضت قد وضعت نقابًا مشوشًا على ملامح «راشيل»، كان يستطيع أن يتذكر بعض التفاصيل حول «راشيل»، لكن من الصعب عليه أن يصيغ تلك التفاصيل في منظور صحيح. ست سنوات، كانت بمعيار الزمن، فترة طويلة، كيف تبدو الآن وهي في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها، لابد من أنها تستطيع

أن تتذكر، كانت أصغر منه بعشر سنوات، ولكنها كانت تسيطر عليه، وهي ما زالت بعد صغيرة في تلك السن، لم يكن لامرأة قبلها أو بعدها شيء من تلك السطوة على شخصه، ومضى في هواجسه: عندما يقابلها في الغد سوف يجعلها تعلم أنها قضمت بأسنانها أكثر مما يستطيع فمها أن يمضغه عندما قبلت أن تقف منه موقف التحدي، كيف تجرؤ على أن تتخيل أنها يمكن أن تصبح عضوًا في أسرته دون أن تثير ردود فعل منه؟ واستولت عليه الفكرة، وألحت عليه... ولم تتركه إلا بعدما جمدت أطرافه من نوبة الغضب...

– 2 –

في الصباح التالي كان من اليسير عليه أن يسأل السيدة «هاريس» عن موقع الـ«أولدهول»، ورفعت السيدة «هاريس» حاجبيها وهي تقول:

– تقصد منزل العقيد «فرنشاو»؟ هل أنت صديق له يا سيد «كنغدوم»؟ وأجابها وهو يزدرد الليمونة الهندية التي أمامه:

– ليس بالضبط، أعرف شخصًا هناك... يعمل لديه...

– لابد من أنه السيد «هانسون».. هل هو ذاك يا سيدي؟ وهز رأسه إلى أعلى وقطب وجهه، وأجاب:

– «هانسون»، لا! لا أعرف أحدا بهذا الاسم. وزمت السيدة «هاريس» شفتيها، وهي تقول:

– لا تعرف أن السيد «هانسون» هو سكرتير العقيد «فرنشاو»، إنه شاب مثقف، ويأتي إلى هنا أحيانًا في عطلة الأسبوع. وازداد وجه «جويل» تقطيبًا، وعلق في تردد:

– حقًا؟ لا! إن الشخص الذي أعرفه هو– في ظني –مديرة منزل العقيد. وانفجرت أسارير وجه السيدة «هاريس» وصاحت:

– السيدة «غيلمور»؟ وركز بصره في الليمونة الهندية، وقال:

– صحيح. ورفعت السيدة «هاريس» حاجبيها، وقالت:

– لا أعرف عن السيدة الشابة أكثر من التحية التي نتبادلها أحيانًا. كان «جويل» يفكر بسرعة، وعلق على إجابتها:

– لكن، هل يوجد آخرون يعملون هناك، أعني في الـ «أولدهول»؟

– على حد علمي، لا! هناك فقط العقيد «فرنشاو» والسيد «هانسون»، والسيدة «غيلمور» بالطبع، أوه، والصغيرة «سارة». وشعر «جويل» بوخز في أعصابه، فسألها:

– أهي ابنة السيدة «غيلمور»؟

– نعم... وأنت تعرف ذلك؟ لم يجب «جويل» بشيء... إذا، فالطفل أنثى واسمها «سارة»، ووجد نفسه يلح على السيدة «هاريس» ليجرها إلى الكلام:

– كنت تنوين أن تخبريني كيف أجد الـ «أولدهول»؟ وأومأت بالموافقة، ورفعت من أمامه صحن الليمونة الهندية، ووضعت بدلا منه صحنا آخر فيه قطعة من اللحم، وشيئًا من البيض والسجق والطماطم. كان ذلك الطعام في العادة يثير شهية «جويل»، ولكنه بعد الليلة القلقة التي قضاها كان يحس بالغثيان، ومع ذلك أرغم نفسه على الطعام وبدأ باللحم، ثم قالت السيدة «هاريس»:

– لو أنك تتبعت طريق «كراغستون» لمسافة كيلومتر، فسوف تجده على يسارك، إنه البيت الوحيد لمسافة كيلومترات عديدة.

– أشكرك. وسكب «جويل» لنفسه بعض القهوة، كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف، وخطر له أن التاسعة قد تكون وقتًا مبكرًا لا يسمح بالزيارة. فكر في الاتصال بالهاتف، ولكنه كان يريد أن يرى الانطباع الذي يرتسم على وجه «راشيل» عندما تراه، وكان يريد أن يستشعر نشوة الزهو التي تتملكه عندما يواجهها بنظرات الاحتقار. كان الصباح لطيفًا في ذلك الوقت الباكر من شهر آذار (مارس)، وقرر أن يلبس سترة تنسجم مع سرواله الأزرق الغامق، وأخذ يدفع ذراعيه في أكمام السترة بينما عيناه تتفحصان ساحة القرية، تحت أشعة الشمس الساطعة، ووقعت عيناه على زهور النرجس البرية وعلى أزهار بيضاء وصفراء تنمو في كل شبر من الأرض،

أما المباني فكانت تبدو نظيفة معتنى بها. لم يكن العثور على طريق «كراغستون» أمرًا صعبًا بعد إرشادات السيدة «هاريس» ووصّل إلى مبنى الـ «أولدهول». كان الدخان يتصاعد بشدة من المداخن، دليلاً على أن بعض سكان المنزل استيقظوا، وكانت هناك حافلة صغيرة قديمة تنتظر في الساحة الأمامية، وبوابات صدئة من الحديد انفرجت تاركة المدخل مفتوحا على مصراعيه، وتوقف «جويل» بسيارته أمام تلك البوابات مباشرة غير واثق إذا كان ينبغي له أن يترك السيارة في ذلك المكان أم لا؟ ولكنه عندئذ أرخى الكابح وولج بسيارته بين أعمدة البوابة، واندفع فوق الممر المفروش بالحصباء، ووقف إلى جوار الحافلة الصغيرة. وترجل من السيارة، ووقف لحظة ينظر إلى النوافذ المطفأة. إذًا، هذا هو المكان الذي تعيش فيه، منذ متى؟ أفي السنتين الأخيرتين أم في السنوات الثلاث الأخيرة؟ ودفع كتفيه إلى الخلف وواصل حديثه مع نفسه: منذ موت زوجها دون شك و«غيلمور» من يكون؟ ماذا كان يعمل ذلك الرجل الذي تزوجها في تلك الفترة القصيرة؟ ولماذا تزوجته؟ هل أحبته؟ لو كان الأمر كذلك، فلا شك في أن الحب كان يعرف طريقه إليها بأسرع مما كان يعرف طريقه إليه، ومشى إلى مدخل المبنى، وبدأ يشد بقوة حبل الجرس، وسمع رجع الصدى يتردد في جنبات المبنى، كان الصوت كفيلا بإيقاظ الموتى، وفتح الباب شاب نحيف يميل شعره إلى الحمرة ووقف ينظر إليه في ترقب، وقال:

– نعم؟ وشعر «جويل» بشيء من الاضطراب، وتعثر في الكلام لحظة ثم ملك نفسه، وقال:

– أريد أن أتحدث إلى السيدة «غيلمور». ورد الشاب في الحال:

– «راشيل»! أجاب:

– نعم، «راشيل»! وبدا أن الشاب كان يضمر له عدم الود، إذ أجابه:

– إنها مشغولة الآن، تستطيع أن تأتي فيما بعد. وتذرع «جويل» بالصبر، وقال:

– أرجوك أن تبلغها أن شخصًا من أسرة «كنغدوم» يريد أن يتحدث إليها، أعتقد أنك ستجدها راغبة في الحديث إلي، ونظر إليه الشاب بشيء من البرود، وأخذ يردد:

www.rewity.com

- «كنغدوم»، أنت أحد أقارب «جيمس كنغدوم»؟ وأجاب «جويل» وهو يهم بالاقتراب من عتبة الباب:

- نعم، والآن، هل تبلغ رسالتي من فضلك؟ وهز الشاب كتفيه، واستدار ليعبر الردهة الفسيحة في مدخل المنزل، أما «جويل» فأسند كتفه إلى دعامة الباب. لابد من أنه «هانسون» الذي تحدثت عنه السيدة «هاريس»، كان يبدو أصغر سنًا مما كان يتوقع، وسمع من خلفه صوتًا يقول:

- هل طلبت أن تتحدث إليّ؟ ودفع رأسه في استدارة إلى الوراء. لم يكن قد أحس باقترابها، ومع ذلك كانت «راشيل» تقف عند المدخل مباشرة، واضعة يديها في جيبيْ مريلتها القطنية المخططة، وجهها أكثر نحافة مما عرفه، متوردا بشكل ظاهر في بعض أجزائه، وشاحبًا بما يشبه الموت في مواضع أخرى، وكان جسمها أكثر نحافة، ولكن شعرها الحريري الأشقر أصبح حبيسًا الآن في عقدة قاسية تتدلى على مؤخرة عنقها، واعتدل «جويل» في وقفته بعض الشيء وسمح لعينيه أن تتفحصاها بطريقة تنم عن ازدراء مقصود، وعلق بسخرية:

- شيء جميل حقًا، السيدة «غيلمور» ماثلة أمامي؟

- ماذا تريد مني يا «جويل»؟ هنا مكان عملي، وعندي من العمل ما يشغلني. كانت أنفاسها تضطرب وهي تتحدث بسرعة، ولاحظ «جويل» أن «هانسون» يرقب من الداخل، وعندئذ نفد صبره وقال بقسوة:

- ينبغي أن تتخلصي من كلب الحراسة الذي يرقبنا، وتخرجي لتتحدثي إلي، لست أنوي أن أسمح بهذه المناقشة أن تتم تحت بصر أحد؟ عندئذ جاء صوت من الداخل ينادي:

- «راشيل»! كان «هانسون» على وشك أن يتدخل، ولكنها أشارت إليه ألا يزج بنفسه في الموضوع، وتحدثت إلى «جويل»:

- أعتقد أنك جئت تطلب تفسيرًا.

- يا لك من شيطانة! هذا حق، إنني فعلا أريد ذلك.

- لكن أباك وعد بألا يخبرك.

- حقًا؟ إنه شيء عظيم منه.

- ولكنه أخبرك بالفعل.

- لابد من أن أصحح لك، فلقد رآكما «فرنسيس» معًا.

- أوه! يا لله! وحدّق «جويل» إليها ببرود، وهو يقول:

- إن الله لن يقف بجانبك الآن... هل تتخلّصين من صديقك هذا؟ أم تتركين لي ذلك؟ وأجابته بشيء من التردد:

- لا أستطيع أن أتحدث إليك... العقيد ينتظر طعام الإفطار الآن و.. و..

- «راشيل»! إنني أحذرك... ولوت يديها المتشابكتين توجعًا، وهي تقول:

- حسنًا يا «جويل»... حسنًا... سأتحدث إليك... لكن ليس الآن... ولا هنا، وليس بهذه الكيفية. ونظرت إلى الوراء من جديد نظرة خاطفة، ثم قالت:

- هل تأتي فيما بعد... هذا المساء إن شئت؟ لم يكن يعجبه أن تقف حيث كانت تتحدث عن إفطار العقيد، ولكنه يدرك أنه لو فقد شعوره وأحدث صخبًا في المكان فما كان ذلك يغني شيئًا، كان يعلم كذلك أن المكان ملكية خاصة لا قِبَل له بالبقاء فيه دون موافقة المالك، وإلا كان متعديًا على أرض الغير، وضبط مشاعره بصعوبة بالغة وقال:

- حسنا، بعد الظهيرة إذًا، في أي وقت بالضبط؟ وهزت «راشيل» كتفيها بشيء من العصبية، وهي تقول:

- لا أدري، ربما توافقك الثانية؟ أو الثانية والنصف؟

- إذن في الثانية. قالها «جويل» بشيء من العبوس دون أن ينطق بكلمة أخرى، ومشى بخطوات واسعة تجاه السيارة. أمضى «جويل» الصباح عند غدير وجده على بعد كيلومترات أخرى من الطريق إلى «كراغستون»، ولم يعد إلى «لانغثويت» رغم أنه أحس بأن الاحتياجات الطبيعية لجسمه تستدعي ذلك، ورغم أنه شعر بالجوع منذ الواحدة ظهرًا اكتفى بسيجارة وبعلبة من الشراب كان يحتفظ بها للطوارئ. وعند الثانية إلا ربعًا نهض، ونفض التراب عن ثيابه، واتجه إلى السيارة. كانت السماء غائمة، والتوت شفتاه تعبيرًا عن الضيق من الطقس، وقفل راجعا تجاه «لانغثويت».

وعندما بلغ قمة الطريق حيث كان بمقدوره أن يرى مبنى الـ «أولدهول» من علٍ على هيئة كتلة رمادية منبطحة. كان المطر ينزل بغزارة. وتوقف بسيارته إلى جانب الحافلة الصغيرة الرثة، وبدلا من أن يترجل ويتجه إلى الباب أخذ يستخدم بوق السيارة ليعلن وصوله، كان هذا السلوك يدل على شيء من الغطرسة والتكبر، وكان على وعي بذلك، ومع هذا كان في قراره نفسه يعلم أن «راشيل» لم تكن لتنزعج أو تشعر بالتهديد من سلوك تعتبره محاولة غير ناضجة، قصد بها إثارتها. تنهد «جويل» ثم دفع باب السيارة، وخرج منها، وعندما ابتلت كتفاه بقطرات المطر زاد عبوسًا وتقطيبًا، وهرع تجاه الجزء المسقوف من مدخل المبنى، فانفتح الباب حال وصوله، وظهرت «راشيل»، وأخذت تصطنع شيئا من الدهشة لرؤيته عند المدخل ولكنه كان مقتنعا بأنها كانت تنتظر نزوله من السيارة قبل أن تظهر على الباب، واحتمى بالجزء المسقوف بينما كانت هي تغلق الباب خلفها، وعلق بشيء من البرود:

– ذكية! لكن بشيء من الطفولة. ورفعت بصرها إليه، وهي تقول:

– عم تتحدث؟ وكاد «جويل» أن ينتهرها بقسوة، ولكنه لاذ بالصمت واكتفى بأن هز رأسه، كانت لاتزال ترتدي القميص والسروال اللذين كانت تلبسهما في الصباح، واستبدلت بالمريلة سترة من البوبلين محلاة بفراء، وأحس للحظة قصيرة بمشاعر الحنو والشفقة تجاهها، وسألها:

– هل تنتظرين حتى أحضر السيارة إلى المدخل؟ وهزت رأسها، وهي تقول:

– تعودت على السير تحت المطر، هل نذهب؟ وبادرت فخطت خارج المدخل المسقوف، وصار يخطو أمامها بخطوات واسعة ليفتح باب السيارة، وصعدت إلى المقعد الأمامي دون أن تنظر إليه، وأغلق الباب خلفها بشيء من العنف الظاهر، ثم دار حول مقدمة السيارة ليتبعها، وعندما استقر على مقعده، بدأ يتفحص كتفي سترته، ووجد أنهما ابتلتا، فخلعها، وألقى بها بشيء من الإهمال على المقعد الخلفي، واقترح عليها أن تفعل بالمثل، ولكنها رفضت بصمت، وهز كتفيه وهو يدير المحرك، وتوقف عند البوابة عندما قالت:

– إلى أين تأخذني؟ علي أن أعود إلى هنا في خلال ساعة. ونظر إليها في غضب، وهو يعلق:

– ساعة؟

– نعم، ساعة. «سارة» لا تنام أكثر من ذلك في فترة ما بعد الظهيرة، ولابد من أن أرجع قبل أن تصحو من النوم. لم يعلق «جويل» بشيء، واكتفى بأن أخذ يقود مسرعًا على الطريق تجاه المكان الذي أمضى فيه صباح ذلك اليوم، فقد كان موقعا يسمح للسيارة بالانتظار بعيدًا عن الطريق، لأنه في بقعة منعزلة وهذه ميزة كبيرة... ولم تنطق «راشيل» بكلمة طوال الطريق، وخطر لـ«جويل» أنها ربما كانت تحاول أن تصوغ قصة تبرر موقفها عندما تتحدث إليه، وأخذ يقاوم رغبة تعتمل في نفسه بين الحين والحين ليتوقف على الطريق طالبًا إليها أن تكف عن اصطناع ذلك الدور.

– حسنا، ما القصة الكاملة إذن؟ وتشابكت راحتا «راشيل» ورددت:

– ماذا تقصد؟

– إنك تعرفين ما أقصده! أريد أن أعرف كيف بلغت الصلة بينك وبين أبي إلى الحد الذي جعله يطلبك للزواج به؟ ورفعت «راشيل» كتفيها النحيلتين، وقالت:

– مضى على معرفتي به سنوات طويلة، وأنت تعرف ذلك يا «جويل». أخذ «جويل» يلوك طرف السيجارة بقلق، ثم قال:

– لأنني قدمتك إليه؟ لكن هذا لا يكفي للتفسير، أستطيع أن أعد على أصابع اليد الواحدة عدد المرات التي قابلت فيها أبي من خلالي، وأنت تعرفين ذلك!

– أعرف.. أعرف أنك... لماذا تستغرب أن يطلب أبوك الزواج بي؟ كان دائما يستلطفني. وبدا فم «جويل» يعاني الوهن، وخرجت منه عبارة:

– «راشيل»! أرجوك بالله! ووضعت يدها على أذنيها حتى لا تسمع، ونطقت:

– أوه، يا «جويل»، أرجوك أن تكف! لم جئت إلى هنا؟ ما الذي تريده؟ كل ما بيننا انتهى منذ زمن بعيد، وليس من حقك أن تحاسبني. وحدّق «جويل» إليها بغضب، وقال:

– ألم يحدث أنني... يا إلهي! إنك لا تشعرين! هل كنت تظنين حقًا أن بإمكانك

أن توافقي على الزواج بأبي دون أن تثيري رد فعل مني؟

– وما علاقة هذا بك؟

– أنت تريدين أن تكوني زوجة أبي، أليس كذلك؟ إنك تحبين أبي الآن كما قلت يومًا ما إنك تحبينني! اظهري على حقيقتك يا «راشيل»! هذه محاولة خبيثة للانتقام؟ وردت بانفعال:

– لنفرض أن هذا صحيح، ما الذي تستطيع أن تفعله؟ وساد الصمت لحظات قليلة، وأخذ «جويل» يحملق بعبوس من نوافذ السيارة إلى المطر المنهمر، لم يكن ليصدق ما حدث. لم تكن تلك أخلاق «راشيل»، ولكن سنوات طويلة مضت منذ انفصلا، وتزوجت هي بعد ذلك وأنجبت طفلةً، وتنهد، ثم قال في هدوء:

– أخبريني، لماذا احتجبتِ عني هكذا، ما الذي فعلته في حقك لأثير فيك هذه الرغبة في الهرب مني؟ وأخذت «راشيل» نفسًا عميقًا، وقالت:

– أنت! تسألني هذا السؤال؟ ما فائدة الكلام الآن يا «جويل»؟ دفن الماضي والذي يعنيني الآن هو المستقبل، وتصلب فك «جويل»، وقال:

– على حساب أي إنسان آخر؟

– هذا غير صحيح، أنت لا تفهم شيئًا عن هذا.

– إذن، أخبريني! أخذت «راشيل» تطوي ثنيات سترتها، وقالت:

– سوف أتزوج أباك يا «جويل»، ولن يغير ما تقوله أنت شيئًا من هذا. وأطبقت قبضتا «جويل»، وهَمَّ يتمتم بقسوة:

– لا بد من أنك يائسة تمامًا يا «راشيل»!

– تمامًا. والتفت ينظر إليها ولاحظ الخطوط الغائرة في وجنتيها وعينيها اللتين تفتقدان اللمعان والبريق، لم يكن ذلك الوجه وجه عروس تستعد لعرسها، وسألها:

– هل ذلك بسبب النقود؟ لو كانت المسألة مسألة نقود فإنني على استعداد لأن أقدم لك ما تحتاجينه منها. والتوت شفتاها بشيء من الازدراء، وقالت:

– لو كنتُ رجلاً لطرحتك أرضًا على هذه الوقاحة في حديثك! أنا لست المرأة التي تتزوج بأي رجل من أجل النقود. إن لك أن تزهو بنفسك يا «جويل»، إنك مغرق في

الزيف. بلغت الاستثارة من «جويل» مبلغها، وأمسك بمعصمها بين أصابعه وأحس بعظامها الهشة ترتعد في يده... لكنه لم يكن ليتصرف بطريقة وحشية، كان له عقل، وكان يريد أن يستخدم ذكاءه، وأحس أنه يحتاج إلى أن يراها تتلوى أمامه وضغط على معصمها فأجفلت ولكنها لم تصرخ، واقترب منها بطريقة جعلته ينشق رائحتها. وأدرك الاستثارة التي أوشكت أن تتقد بداخله وأحس بشيء من الاشمئزاز من نفسه، فاسترخى في مقعده، وعاد يسألها في عناد:

– أريد أن أعرف شيئًا عن زوجك، وعن الطفل، هل مات «غيلمور»؟ يقول أبي إنك أرملة. كانت في ذلك الوقت قد أخذت تدلك معصمها، وأجابت:

– أنا أرملة بالفعل.

– وماذا كان اسم زوجك؟ واعتراها شيء من الدهشة، وقالت:

– اسمه؟ إنك تعرف اسمه! ونظر إليها نظرة تتسم بالبرود، وألح:

– «غيلمور»؟ هل هذا هو الاسم الذي كنتِ تنادينه به؟ «غيلمور»! واحمر وجهها، وقالت:

– أوه! بالطبع لا! اسمه الأول كان «ألن».

– «ألن غيلمور»؟ ماذا كان يعمل؟ وبدا على «راشيل» شيء من الحيرة وسألت:

– هل هذا شيء مهم؟

–أعتقد ذلك. وتنهدت، وقالت:

– كان مهندسًا، كان يعمل لدى الدولة. وبدا كما لو كان قد استساغ العبارة الأخيرة، وقال:

– أفهم، لكن كم دام الزواج؟ سنتين أم ثلاث سنوات؟ لكن بماذا يهم ذلك الآن؟ لم يكن «جويل» يدري سر فضوله، وربما كان وراء ذلك رغبة سادية جعلته يستشعر اللذة في إجبارها على الحديث عن موضوع يجلب لها الألم، وقال يسبر مشاعرها:

– لا بد من أنكِ عانيتِ كثيرًا في تحمل مسؤولية تربية الطفلة وحدك، هل هذا هو الذي جعلك تقبلين العمل كمديرة منزل لدى العقيد «فرنشاو»؟ ألهذا تتزوجين أبي؟ من أجل «سارة»؟ وزمجرت بعنف قائلة:

www.rewity.com

– لا تتجرأ وتذكر اسمها! إنك لا تعرفها، ولا تعرفني أنا أيضًا، لماذا لا تنصرف إلى حال سبيلك، وتتركني وحدي.

– أريد أن أعرف!

– إن الأمر لا يعنيك.

– عليكِ اللعنة! هل تظنين أن الأمر لا يعنيني؟ من حقي أن أعرف. ازداد صوتها عندئذ حدة، وهي تقول:

– حقك؟ يا «جويل»، ليست لك حقوق على الإطلاق، فقدت هذه الحقوق عندما... عندما... وتضاءل صوتها، واستدارت بعيدًا عنه، وصارت تحدق إلى راحتيها، وأضافت:

– هل تعود بي من فضلك؟ وانتصب «جويل» في مقعده، وهو يحدق إلى منظرها الجانبي، وأحس بأنه قريب جدًا من الحقيقة، كان للحظة واحدة على وشك أن يعرفها كاملة، وأحس كأنه يعرفها في قرارة نفسه وكان يبتهج بها، ولكن «راشيل» تراجعت ثانية وشعرت بالإحباط، وتمنى لو كانت «راشيل» رجلاً... إذًا لأجبره بالقوة على أن يبوح بما يداخله، ولكن «راشيل» امرأة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وعليه أن يجد سبيلاً ليطلق العواطف المكبوتة التي تشد لسانها عن الكلام، لكن كيف يتوصل إلى ذلك؟ كانت «راشيل» قد ملكت زمام نفسها ثانية، ونظرت إلى وجهه نظرة خاطفة وقالت للمرة الثانية:

– هل تعود بي؟ وأجاب بشيء من التوتر:

– ليس بعد. وبدأ يستعرض في ذهنه كل ما قيل. ويحاول أن يجد مما قيل مفتاحًا يفتح له الباب المغلق، ما الألفاظ التي جعلتها تثور بتلك الطريقة؟ عم كانا يتحدثان؟ عن زوجها؟ عن «غيلمور» نعم و... الطفلة. حاول أن يتذكر ما قاله عن الطفلة؛ لأنه ذكر أنها ستتزوج بأبيه من أجل الطفلة، تفجر غضبها؟ إذن فليحاول مرة أخرى، وقال وهو يبحث عن سيجار آخر:

– ومتى سيتم الزواج؟ وتنهدت «راشيل» بشيء من القلق، وقالت:

– لا أعرف الموعد بالضبط، لكن خلال أسابيع قليلة.

– وحتى ذلك الحين ستظلين هنا؟

– أنا... ربما... وسيطر «جويل» على غضبه، وقال:

– و«سارة»... هل ستعيش معك عندما تتزوجين؟ وحدقت إليه بغضب، وقالت:

– بالطبع، وهل يمكن أن تعيش في أي مكان آخر؟ أوه! كف عن هذا يا «جويل»! أريد أن أعود... طال بي الوقت، وقد تستيقظ «سارة». ورد بشيء من البرود:

– أنا واثق بأن «هانسون» سيكون سعيدًا للغاية إذا ما وجد الفرصة ليعنى بها بعض الوقت، ومع ذلك فهي لم تعد رضيعة، كم عمرها الآن؟ ثلاث سنوات؟ أربع؟ لا شك في أنها تُقَدِّر أن أمها يمكن أن تتغيب أحيانًا؟ صارت «راشيل» تنشق أنفاسها بطريقة تدل على القلق وقالت:

– هل تنوي الآن أن تعود بي؟ وكررتها بشيء من الارتجاف.

– وإذا قلت لا؟

– يمكنني أن أعود سيرًا على الأقدام، لست خائرة القوى. واتجهت يدها إلى مقبض الباب، ولكنه كان أسبق منها، ومد يده ليمنعها من فتحه، ورغم أنها انكمشت إلى الوراء لتتجنب ملمسه، وضح أنه كان يتعمد أن يلامسها، وسأل بشيء من السخرية:

– ما الحكاية يا «راشيل»؟ إذا كنت ستصبحين زوجة أبي، فما الذي يمنع أن يألف أحدنا الآخر بطريقة أفضل، ولعلني ما زلت أذكر جيدًا، كيف كنتِ فيما مضى تحبين أن ألمسك كثيرًا. وصارعت كي تحرر نفسها، أنفاسها تتدافع بقوة، أما هو فرغم نداء العقل الذي كان يحذره من الطريقة التي كان يتصرف بها، فإن شيئًا آخر بداخله أقوى من عاطفة اعتبار الذات كان يدفعه إلى أن يستمر. كان قربها منه يثيره بشكل كبير، لم يكن هناك مكان للحب في تفكيره، ولكن الرغبة كانت تطل برأسها القبيح، وعلى الرغم من جسمها النحيل، وشعرها البادي بمظهره السيئ وملابسها التي لم تكن تساير الجديد في عالم الأزياء. كانت «راشيل» امرأة ذات جمال، ولها دائمًا القدرة على أن تثير الاضطراب في أحاسيسه، بدرجة كان يشعر إزاءها بالحنق ذات يوم، وصرخت فيه:

– ابتعد عني، كان ينبغي أن أعرف أن النهاية ستكون هكذا، هذا هو كل ما تصلح له يا «جويل»، أليس كذلك؟ وقالت، وهي تكاد تختنق:

– إنني أقول الحقيقة، إنك تريد كل شيء في مقابل لا شيء، أليس كذلك؟ الجسد دون العقل! اللذة دون الألم!

– عم تتحدثين؟ كان يمسك بكتفيها الآن، وبينما كان عقله يوسوس إليه بأنه حدث ما يريد، فالمنطق الهادئ كان يحذره من الإجابة التي كان ينتظرها، وصار يهزها بعنف، وانحلّ شعرها من العقدة التي كانت تربطه، وتهدل كستائر الحرير حول كتفيها، لم تكن من قبل قد بدت في مثل تلك الصورة... وتمتم في صوت أجش:

– «راشيل»... وقالت، وهي تلهث:

– ابتعد عني أيها البهيمي! إياك أن تجرؤ على لمسي! وتسمرت أصابعه على كتفيها، وهو يقول:

– «راشيل»! «راشيل»! لا تخشي مني! يا إلهي... لقد أحببتك من قبل، فكيف أؤذيك؟ وخلصت نفسها منه، وهي تقول:

– هل أصدق أنك لا تفعل ذلك؟ أتظن أنني أصدقك؟ وألح عليها بصوت أكثر حدة:

– لمَ بحق الله؟ ما الذي فعلته بكِ؟ قولي لي إن كان شيء من ذلك قد حدث؟ لقد هجرتني، أنتِ التي هربتِ دون أن تخبري أحدًا بالمكان الذي ذهبتِ إليه! يا إلهي! لقد كدت أُجَنّ. وتجعدت شفتا «راشيل» وقالت:

– إنك لا تفهم يا «جويل»! حتى اللحظة الحاضرة ليس لديك أية فكرة عما أتكلم عنه، إن «سارة» ليست ابنة الثانية أو الثالثة من العمر! عمرها الآن خمس سنوات... هل تفهم ما يعنيه ذلك؟ وارتخت يدا «جويل» عن كتفيها، وقطب حاجبيه، وظهرت خطوط غائرة على جبهته، وبدأ شعور غريب بالألم يصيب معدته، ولم يكن يدري أنها تحدق إليه، وتختبر ردود فعله، وتتلذذ بإحساسه المرهق بالفزع والشك، وعندئذ وجد في التظاهر بالجهل عذرًا منطقيًا، وألح بشدة:

– ماذا تقولين؟ ولكن نشوة «راشيل» بالنصر لم تدم طويلاً، وحركت كتفيها يائسة،

وهي تتمتم في غير وضوح:

– ما كان ينبغي لي أن أخبرك.

– ما كان ينبغي لكِ أن تخبريني بماذا؟ هل تقصدين أن تقولي.. إن هذه الطفلة.. «سارة».. هي ابنتي؟ ونظرت إليه «راشيل»، وقد أحست بشيء من الوهن، وقالت:

– وهل تظن أنها تنتسب إلى شخص آخر؟ وحرك رأسه في ارتباك، وهو يقول:

– «غيلمور»! زوجك!

– لم يكن لي أي زوج يا «جويل»! كنت أعمل لدى العقيد «فرنشاو» وطيلة السنوات الخمس الأخيرة. امتدت يد «جويل» في غضب إلى مفتاح السيارة ليدير المحرك، وكاد خلال ذلك أن يدفع بـ«راشيل» بعيدًا عنه، وارتعد وجهها الشاحب، وقالت:

– ماذا تفعل؟.. وأجاب في أنفاس مضطربة:

– ما الذي تظنين أنني فاعله؟ سوف أعود بكِ، أريد أن أرى ابنتي، إن كانت ابنتي! وحاولت «راشيل» أن توقف يده، وجذبت ذراعه بقوة لمدة لحظة، وهي تقول:

– أوه لا! لا يمكن أن تفعل ذلك!

– لن تستطيعي أن تمنعيني.

– سأمنعك بالتأكيد، سأعمل ما في وسعي لأمنعك. واضطر إزاء ذلك أن يتوقف لحظة، ثم التفت إليها بنظرة فيها شيء من الاحتقار وسأل:

– لمَ؟ لا أرى ابنتي؟ هل تخشين أن أراها؟ هل تخشين أن أكشف كذبك؟

– إنه ليس كذبًا، دعني أشرح يا «جويل» من فضلك، دعني أُفَسِّر.

– ما الذي يمكنك أن تفسّريه؟ وهزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– لماذا تريد أن تراها؟ إنك لا تحب الأطفال يا «جويل»! كنت دائمًا تردد ذلك.

– لكن يبدو أنه أصبح لي طفلة؟ وخاطبته «راشيل» بلهجة متشددة:

– وهل تعتقد أن ذلك يؤهلك لتدعي أن سارة ابنتك؟ يا إلهي. ودفع «جويل» بيديه خلال شعره، لم يكن في طاقته أن يتحمل كل ذلك، ربما كانت خدعة أو مناورة

www.rewity.com

من جانب «راشيل» لكي تجعله يتلوى، لابد من أنها كذلك، وقال في شيء من التوتر:

– حسنًا! إنني أعترف أن الأطفال لا يلعبون دورًا في نمط حياتي، فأنا رسام يا«راشيل»، لست مربية.

– بالضبط.

– وهل تعتقدين أن هذا يجيز لكِ أن تحتفظي بوجود ابنتي في الحياة سرًا طوال تلك السنين؟ أخذت «راشيل» تندف بعصبية خصلة من شعرها وقالت في ارتعاش عصبي:

– ارجع بذاكرتك إلى الوراء يا «جويل»، هل بإمكانك أن تتخيل رد فعلك منذ ست سنوات لو أنني جئت إليك حينذاك، وأخبرتك بأنني أنتظر طفلاً منك؟ وتململ «جويل» في قلق، فمنذ سنوات كان يشق طريقه. منذ ست سنوات كان الطموح قوة كبيرة بداخله، كان ذلك الطموح مؤثرًا، لكن بشكل مختلف، وعلى أية حال.. تمتم «جويل»:

– ما كان ينبغي أن يحدث ذلك قط... استطردت «راشيل» تقول:

– كان يجب أن أتأكد أنه لا شيء ينبغي أن يفسد عليك متعتك! يا إلهي! هل تسمع يا «جويل»؟ إنك أناني! وانك جدير بالازدراء! إنك كذلك! وسوف تظل دائما كذلك! هل لي أن أذكرك بأنني لم أعرف ما كنت تنوي أن تفعله معي؟ لقد وثقت بك، يا «جويل»! وكنت أظن أنك أحببتني بحق! واغتم وجه «جويل»، وحاول أن ينفي عن نفسه التهمة، وهو يقول:

– هذا ليس صحيحًا يا «راشيل»! لقد أحببتك بحق! لقد أحببتك! إن الذي وقع... وقع... لأن كلينا أراد ذلك! ووضعت «راشيل» راحتي يديها على أذنيها مرة ثانية، وهي تقول:

– لا!

– نعم! كنت أريد أن أشاركك حياتي يا «راشيل»!

– أشاركك حياتك؟ أعيش معك! أيها الدني»!

– ربما كنت أقصد ذلك فعلاً في البداية... وقاطعته:

– كنت ستجد شخصًا آخر!

– لا! عليك اللعنة! كنت سأتزوجك.

– يا لك من شهم!

– لم يكن الزواج في خطتي يا «راشيل»... في ذلك الوقت!

– ولم يكن الأطفال في خطتك في أي وقت. ومد «جويل» إحدى يديه إلى مؤخرة عنقه، كان يشعر بالاضطراب، بل لم يكن قادرًا على التفكير، ودمدم قائلاً:

– المواقف تغير الأحوال.

– ماذا يعني ذلك؟

– يعني أنه إذا... ما زلت أقول إذا... كانت «سارة» ابنتي... فسوف يكون عليَّ أن أغير خططي للمستقبل. واتسعت حدقتا عينيها في شيء من الشك، وتساءلت:

– عن أي شيء تتحدث؟ وأجاب:

– ينبغي بالطبع أن نتزوج. وكادت «راشيل» تقهقه في وجهه، وهي تقول:

– نتزوج! نتزوج! ما كنت لأتزوجك ولو كنت آخر رجل على الأرض! يا إلهي! ماأيسر أن يصبح الرجل مغرورًا! هل تظن حقًا أنني يمكن أن أتزوجك الآن! وأمسك «جويل» بساعديها بقبضة تنم عن الشعور بالإثم، وهو يقول بغضب شديد:

– ليس من حقك أن تتكلمي كثيرًا في هذا الموضوع.

– ألا يحق لي ذلك؟ وماذا يكون رأي أبيك؟ كان «جويل» قد نسي للحظة السبب الذي جاء من أجله إلى هنا، وأجاب:

– لا يهمني ما يقول أبي، إذا كانت الطفلة لي، فهي لي.

– إنها ليست سلعة تملكها يا «جويل»، إنها إنسان، إنها إنسان خاص للغاية، ولها حقوق.

– ماذا تعنين؟

– أعني أن «سارة» ابنتي، ربما تكون قد قمت بدور ثانوي في حملي بها، ولكنك لا تستطيع أن تثبت ذلك.

– ألا تبدو قريبة الشبه بي؟ والتوت شفتا «راشيل»، وقالت:

– الحق أنها تكاد تكون نسخة منك! وانضغطت عضلات معدة «جويل» بطريقة غريبة للغاية، وأحس بأنه يريد– بتهور– أن يرى «سارة» وقال:

– إذن، سيكون عليَّ أن أرفع دعوى! وهزت «راشيل» رأسها وقالت:

– سوف أنكرها، وسيكون بإمكاني أن أقول إنها ابنة «جيمس». كاد «جويل» أن يضربها عند ذاك، وأحس برغبة كبيرة في أن يفتح بقوة باب السيارة دفعته إلى أن يترجل منها إلى الخارج تحت وابل المطر لينشق أنفاسًا من الهواء البارد الرطب في تلك الأراضي البور، هل تجرؤ على توبيخه بتلك الطريقة الساخرة بالادعاء بأن الطفلة لأبيه؟ وبقي على تلك الحال القلقة بضع دقائق قبل أن يجرؤ على العودة إلى السيارة ليجلس إلى جوارها مرة ثانية، كان عندئذ قد عاوده هدوءه بدرجة واضحة، ولكنه لا يزال عنيدًا، وقال في شيء من الثبات:

– أريد أن أرى ابنتي... سوف أفعل ذلك بطريقة أو بأخرى... لن تستطيعي أن تمنعيني من ذلك مهما قلتِ أو عملتِ يا «راشيل». وظلت «راشيل» صامتة لبضع دقائق، ثم قالت في هدوء:

– وما الخير في ذلك يا «جويل»؟ وأغلق «جويل» عينيه في ألم مبرح من الانفعالات التي كادت تمزقه. مرت الدقائق الخمس عشرة الأخيرة وهو يعاني أقسى أنواع العذاب النفسي، ورأسه تكاد تتصدع من شدة الكراهية. ماذا تريد هذه المرأة أن تفعل به؟ وتمتم يحدثها:

– إنك امرأة قاسية... ماذا غيَّرك؟ وأجابته ببرود:

– أعتقد أنك تعرف الإجابة عن هذا السؤال... والآن إذا كان من واجبك أن تعود بي... فهل تعود بي الآن؟

– 3 –

غادرت «راشيل» السيارة، بعدما تغيبت أكثر من ساعة، وخطر لها أن «سارة»

ربما استيقظت بالفعل وأنها بدأت تناديها، مما جعلها تهرول نحو الباب تختلج في نفسها مشاعر القلق، وتبعها «جويل» بخطى واسعة، مرتديًا سترته الجلدية الزرقاء، بوجه شارد قاتم، وهو يقول:

– انتظري، إنني آت معك. وتوقفت «راشيل» معترضة:

– هذا منزل العقيد يا «جويل»، لا أستطيع أن أدعوك بلا إذن منه. ونظر إليها «جويل» ببرود، وقال:

– أوه... لا... هل قلت ذلك لأبي أيضًا؟ وتنهدت «راشيل»، وقالت:

– أبوك... يعرف العقيد «فرنشاو».

– أكاد أفهم! شريك في التآمر! وكانت أعصاب «راشيل» قد أصبحت مشدودة وقالت:

– لا تكن سخيفًا يا «جويل»! سأذهب وأخبر العقيد! سوف أستأذنه. وسبقها «جويل» إلى المدخل وهو يقول:

– لا تشغلي بالك! لن تجعليني أنتظر أكثر من ذلك! ونظرت إليه «راشيل» بغضب، وهي تجتازه، ثم توقفا في الردهة الداخلية، لم تكن تدري ما تفعل، كان البيت يبدو هادئًا، وكانت «راشيل» تعرف أن العقيد يهجع للراحة في فترة ما بعد الظهر، وأصبحت المشكلة كيف تجرؤ على اصطحاب «جويل» دون أن تستأذن العقيد أولاً؟ وقالت:

– هيا بنا... كان «جويل» نافد الصبر... خلعت «راشيل» سترتها وبدأت تصعد الدرج إلى سكنها في الطابق الأول، حيث اتجهت إلى باب في نهاية الردهة، ودخلت إلى غرفة الجلوس. وكانت هناك أبواب أربعة تنفتح عليها، أحدهما يؤدي إلى غرفة نوم «راشيل» والثاني إلى غرفة «سارة» والثالث يؤدي إلى مطبخ صغير والباب الأخير يؤدي إلى الحمام.. ووقف «جويل» في المدخل وقال بصوت أجش:

– أين هي؟ وأجابت «راشيل» وهي تخشى اللحظة التي يرى فيها الطفلة لأول مرة:

– ربما لا تزال نائمة. ورغم أن «راشيل» كانت تحاول أن تؤجل ما لم يكن

منه بد، انفتح باب غرفة «سارة»، ووقفت «سارة» بنفسها في مدخل الباب تنظر بعينين طارفتين وشعرها الذي يشبه إلى حدٍّ كبير شعر «جويل» يتدلى على كتفيها النحيلتين، أما عيناها القاتمتان بشكل غريب، ووجنتاها الشاحبتان فإن الشبه بينها وبين ملامح أسرة «كنغدوم» لم يكن ليخطئه أحد. وصاحت الصغيرة:

– ماما؟... ماما... أنت أيقظتني. تملكت «راشيل» زمام نفسها، وهي لا تجرؤ على النظر إلى «جويل»، الذي كان وجهه العابس صورة طبق الأصل من وجه «سارة»، وقالت:

– آسفة يا عزيزتي، حضر شخص لزيارتك. واضطربت رموش «سارة» الطويلة، وقالت:

– من؟ ولم تظهر على وجهها ابتسامة الترحيب لتلين من ملامحها العابسة، وانفعل «جويل» عندئذ:

– إنني... أنتِ... إنك... أنا... صديق لكِ. ونظرت «سارة» إليه بشيء من الشك، وتمتمت:

– ليس لي أصدقاء. وركع «جويل» أمامها، وهو يقول:

– أنا متأكد أن لك أصدقاء... ما رأيك في العقيد؟ وما رأيك في «هانسون»؟ وأجابت «سارة»:

– لا أحب «أندرو»! والعقيد كهلٌ جدًّا! واستفسر «جويل»:

– «أندرو»؟ وقالت «راشيل» بشيء من التردد:

– «أندرو هانسون». وعلق «جويل»:

– وبالطبع لا يوجد شخص آخر تلعبين معه؟ وأجابت «سارة»:

– أنا لا ألعب، إنني مقعدة. ألا ترى؟

– ماذا تقصدين؟ ما الذي تخفينه عني؟ وتململت «راشيل» قائلة:

– «سارة» تعاني فقر دم بسيط، هذا كل شيء، إنها تحت العلاج. وبدا أن «جويل» لم يقتنع بما سمع، واستمر يسأل:

– ما نوع مرض الدم الذي تشكو منه؟

– ليس شيئًا خطيرًا. ونظرت «راشيل» إلى «سارة» نظرة ثاقبة، وأكملت:

– أرجوك يا «جويل»! ليس الآن! وظل «جويل» يلح في السؤال:

– ومن الذي أسماك مقعدة يا «سارة»؟ وبدت «سارة» وقد اعتراها شيء من القلق، واتجهت إلى أمها تسأل:

– ماما؟ وأجابت «راشيل» بسرعة:

– أعتقد أنه العقيد. وعلقت «سارة»:

– سمعتهم في المستشفى يتحدثون.. رجل قال: أين هي؟ وامرأة قالت: من؟ وقال الرجل: المقعدة الصغيرة. وصاحت «راشيل»:

– أوه! «سارة»! ربما لم يكونوا ليتحدثوا عنك، وألح «جويل» في السؤال مرة أخرى:

– أية مستشفى يا «سارة»؟ وأجابت:

– المستشفى الذي في «هيوستن». وقاطعتها أمها:

– كفى يا «سارة»! واتجهت إلى «جويل»:

– ألا ترى يا «جويل» أنك قلت ما فيه الكفاية. ودمدم «جويل» مقطبا:

– أريد أن أعرف المزيد.

– أرجوك يا «جويل»! لا تثر المشكلات. كانت «سارة» قد أحست أن اللذين يتحدثان ليسا متعاطفين فقطبت وصارت تسأل في حدة:

– ما الحكاية يا ماما؟ لماذا تنظر إلى ماما هكذا؟ لماذا جئت هنا؟ لست صديقًا لي وأنا لا أحس نحوك بأي حب. واضطرت «راشيل» أن توقف «سارة» وقالت:

– «سارة»، هذا لا يليق، لابد من أن تعتذري للسيد «كنغدوم». وأجابت «سارة»:

– لا أحس بأنني ينبغي لي أن أفعل ذلك! وأزاحت «سارة» يد أمها ثم سارت عبر الغرفة إلى حيث كانت بعض الدمى. كان «جويل» يرقب الطفلة عن كثب، ووجدت «راشيل» نفسها ترقب «جويل»: ترى ماذا كان رأيه فيها؟ تلك الطفلة التي لم يكن ليعرف بوجودها حتى اليوم؟ هل خاب أمله عندما لم يجدها ذات بشرة بيضاء قرنفلية ريانة، بعينين تشبهان عيني الدمية، وبشعر متجعد؟ ومع ذلك كان لدى

www.rewity.com

«سارة» الشيء الكثير، إخلاصها، وحبها، وسرعة خاطرها، وأكثر من ذلك كله كنز الحب الذي كان حتى الآن يتجه إلى «راشيل»، وتركت «راشيل» العنان لخواطرها تتخيل كيف يمكن أن يكون رد فعل «سارة» لو علمت أن «جويل كنغدوم» هو الأب الذي كانت تظن أنه مات. وساد الصمت لدقائق عديدة، ثم تحدث «جويل»:

– هل فحصها أحد الإخصائيين؟

– فحصها كثيرون! إنها ليست الأولى أو الأخيرة، سوف يكون هناك دائما أطفال مثلها. ودمدم «جويل»:

– ولكن الآخرين ليسوا أطفالي. وردت «راشيل» بصوت أجش:

– ولا «سارة» طفلتك، أرجو ألاّ تنسى ذلك!

– «راشيل»، إن «سارة» ابنتي كما هي ابنتك، أما عن الدوافع التي تجعلك تحتفظين بشخصيتها سرًا فهذا شيء يخصك، ولكنني أرى أن هذه الدوافع لن تصمد كثيرًا لأي تحقيق يجري أمام القضاء. وهنا التفتت إليه «راشيل» تقول:

– القضاء؟ أصبحت «سارة» تعني لك الشيء الكثير؟ وسأل في عبوس:

– ماذا كان ينتظر مني؟ أنا لست قارئ أفكار، كيف بإمكاني أن أعرف أنك كنت حاملا؟

– لم تكن لتهتم لا بهذا ولا بذاك. واغتمّ وجه «جويل» عندئذ، وقال:

– «راشيل»، لو أنني كنت أعلم...

– أوه، نعم! لو علمت أنني حامل، ماذا كنت تقترح يا ترى؟ التبني أم الإجهاض؟ كان «جويل» يشرع في الخطو تجاهها عندما انفتح باب غرفة الجلوس ووقف «أندرو هانسون» على عتبة الباب يقول:

– «راشيل»، ظننت أنني سمعت أصواتًا، أوه! وكان قد لمح «جويل»، واصطنعت «راشيل» ابتسامة باهتة، وحاولت أن تطمئنه بطريقة كان فيها بعض الحرج، وقالت:

– السيد «كنغدوم» على وشك الرحيل، كان يريد أن يرى «سارة». كانت عينا «راشيل» تتوسلان إليه ليرد بالموافقة، ولكنه لم يكن على استعداد لذلك التوسل،

كان وجه «هانسون» يعكس فضوله، ولكنه استطاع أن يخفي ذلك برجولة، وهو يقول:

– فكرت أن من واجبي إعلامك أن العقيد استيقظ وينتظر الشاي. وأومأت «راشيل» برأسها، وقالت:

– شكرًا. وأجبرت نفسها على النظر نحو «جويل»، وقالت:

– عليك أن تخرج الآن يا «جويل»! ونظر «جويل» إليها، ثم نظر إلى «هانسون»، واستدار ببصره إلى «سارة» وقال:

– اذهبي أنتِ إلى عملك.. وقومي بواجباتك! وسأرعى أنا «سارة». وجرت «سارة» عبر الغرفة لتخبئ وجهها بين قدمي «راشيل»، وهي تقول:

– لا أريد أن أبقى معه، أريد أن أذهب معك. وتجهم «هانسون» وقال:

– لا تجزعي يا «سارة» سوف ينصرف السيد «كنغدوم» طبعًا. ورد عليه «جويل» ببرود:

– من الأفضل أن تعنى بشؤونك الخاصة يا «هانسون».

– أوه! أرجوك يا «جويل»! وحاولت «راشيل» أن تتوسل إليه، لكن «جويل» تجاهلها، واستمر يقول:

– هل تتركنا يا «هانسون»؟ أم ينبغي أن تطرد بالقوة. كان «جويل» يخاطبه بشيء من الإهانة، والتفت الرجل، وانصرف وهو يردد أنه لابد للعقيد أن يعرف بما حدث وأن يقول فيه قولته، وحدّقت «راشيل» تجاهه، ووقع بصرها على جسم «سارة» الصغير، وقالت:

– أوه يا «جويل»! انصرف قبل أن ترتكب حماقة أخرى! ورد عليها بوحشية:

– حان الوقت لتدركي أنه لا يمكنك أن تدفني رأسك في الرمال بعد ذلك، هل تعتقدين أنني سأقبل إبقاء الطفلة هنا؟ ثم إنك لم تخبريني بعد لماذا تتزوجين أبي؟ إنني أصر هنا على أن أعرف، وفي سبيل ذلك لا تعنيني مسألة اللياقة. وأغلقت «راشيل» عينيها لحظة، وفتحتهما ثانية، ثم قالت:

– ليس لدي وقت لمناقشة ذلك معك يا «جويل»!

– إذن ماذا أفعل؟ هل أبقى في القرية حتى تجدي الوقت؟

– لا! إذا كان لابد لك من أن تعلم، فسوف أكون في «لندن» الأسبوع المقبل. لقد وجد أبوك سكنًا خاصًا لي، لأقيم فيه حتى نتزوج، وبعد ذلك – على ما أظن– سوف نعيش في الخارج. وصاح «جويل» في دهشة:

– في الخارج؟ أين؟

– أظن أن... لأبيك بيتًا... في إحدى الجزر اليونانية؟

– نعم، «لياكورس»، وماذا سيكون حال المصرف؟ وهزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– ذلك سيكون أفضل لـ «سارة»..

– إذن فالموضوع له علاقة بـ«سارة»! لن أسمح لكِ بهذا.

– إنك لا تستطيع أن تمنعني.

– سوف أحاول. ونظرت إليه «سارة»، وحاولت أن تغيظه بقسمات وجهها، وهي تقول:

– لا أحبك. ورد عليها قائلاً:

– إن هذا شيء مؤسف، لأنني أحبك... أحبك كثيرًا... واستدار وترك الغرفة بعدما أومأ إيماءة ساخرة لكليهما، وسمعت «راشيل» وقع قدميه وهو يهبط الدرج، وسمعت كذلك صوت الباب الخارجي ينغلق وراءه، وأخيرًا سمعت صوت هدير محرك المرسيدس القوي، ورفعت «سارة» رأسها عندما سمعا صوت السيارة يذهب بعيدا وسألت بقلق:

– هل سيكون كل شيء على ما يرام؟ وانحنت «راشيل»، وعانقتها في رقة قائلة:

– بالطبع يا حبيبتي! والآن عليَّ أن أذهب لأقدم الشاي للعقيد، وإلا وقعت في مشكلة. كانت «سارة» منشغلة تمامًا بما سمعته من حديث «جويل»، وسألت أمها في شيء من الضيق:

– ماذا يقصد ياماما؟ هل أبوه هو الذي سيصبح أبي؟ هل سيعيش معنا كذلك؟

– لا يا حبيبتي!

– ولكنه قال بالفعل أنك ستتزوجين أباه؟ ألم يقل ذلك؟ لقد سمعته..

– «سارة»! الرجل الذي كان هنا منذ لحظة هو ابن السيد «كنغدوم»، ولكن له بيته الخاص، وهو لايعيش مع أبيه.

– ولمَ لا؟

– عندما يكبر الناس، ويمكنهم الاعتماد على أنفسهم، يعيشون في بيوتهم الخاصة.

– ولكنني لن أفعل ذلك!

– البنات عندما يكبرن عادة يقابلن أشخاصا ويقعن في الحب، ثم يتزوجن، ويكون لهن بيوت وأطفال.

– مثلما فعلتِ يا أمي؟! وترددت «راشيل»، ثم قالت:

– مثلما فعلت.

– لكن لماذا مات أبي؟ وتنهدت «راشيل»، كان قد مضى وقت طويل منذ أن أثير هذا الموضوع لآخر مرة، وكانت «راشيل» بعد المقابلة بينها وبين «جويل» غير مهيأة للإجابة عن تلك الأسئلة، وقالت:

– حبيبتي! عليَّ أن أحضر الشاي للعقيد، هل تأتين معي أم تنتظرين هنا؟

– سوف آتي معك، فقط سأحضر «هيلغا»، إنها تحب أن تتفرج عليك وأنت تقدمين الشاي. كانت «هيلغا» دمية صنعتها «راشيل» من قصاصات القماش منذ ثلاث سنوات مضت، وكانت قد أصبحت رثة وقديمة، ومع ذلك ما زالت مركز اهتمام «سارة»، تحرص على اصطحابها إلى كل مكان، وأخذت «راشيل» تنتظر، وهي تحاول أن تهدئ من قلقها، كانت سعيدة بأن لها ما يشغلها ويشغل تفكيرها، وعندما التحقت بذلك العمل كانت تعلم أنها سوف تقابل «جويل» إن عاجلاً أم آجلاً... ولكنها لم تكن تتوقع أن تكون المقابلة على تلك الصورة من المرارة والألم. كان الوقت متأخرًا عندما وصل «جويل» بسيارته إلى شارع «بيزووتر»، ثم انعطف إلى «لانكستر ميوز» وكان قد توقف في إحدى مناطق الخدمة على الطريق، والتهم بعض شطائر اللحم، إذ كان الجوع والتعب قد أوشكا أن ينالا من قدرته على

www.rewity.com

القيادة، وكان يريد أن يحتفظ بنشاطه العقلي عندما يعود إلى «لندن». جعل «جويل» السيارة تنتظر عند قاعدة الدرج الضحل الذي يؤدي إلى الباب، وكانت غرفة المكتب الخاص بأبيه تقع في الجزء الخلفي من المبنى حيث يمضي معظم وقته، وكان مع «جويل» مفتاح للباب وأدار المزلاج، فانفتح الباب على الردهة، وكان الدرج المؤدي إلى الطابق الرئيسي يقع أمامه مباشرة. سار «جويل» بقلق عبر باب دوار وظهر ضوء من تحت عقب الباب في نهاية الطرف البعيد للممر، فخطا تجاهه بخطوات واسعة، وفتح باب غرفة مكتب أبيه دون استئذان. وكان «جيمس كنغدوم» يجلس إلى مكتبه منشغلا بالعمل، وزال غضب الوالد عندما رأى «جويل»... وسرعان ما رسمت ملامح وجهه ابتسامة ساخرة كانت تشبه إلى حدٍّ كبير ابتسامة «جويل»... لقد كانا متماثلين، غير أن وجه «جيمس كنغدوم» تظهر عليه آثار السن والخبرة، وشعره أبيض تماما. ونهض يقول:

– «جويل»! أية مفاجأة لم أكن أنتظرها... وأغلق «جويل» باب المكتب، واستند إليه، وقال في تجهم:

– لا تنظر إليَّ هكذا، إنك تعرف لماذا أتيت إلى هنا؟ ورفع «جيمس» حاجبيه الكثيفين، وهو يقول:

– حقًّا؟! ورد «جويل» بطريقة يحاول أن يختبره بها:

– دون أدنى شك! وقال «جيمس»:

– حسنًا، تُرى ما الذي جعلك تفكر في زيارتي؟ أعتقد أن هذه هي الزيارة الثانية في خلال الشهور الستة الماضية. وأجاب «جويل» باختصار:

– حياتي مليئة بالعمل.

– أنا متأكد من ذلك، وعلى الأقل بسبب التكاليف التي أرسلها إليك. وبدت على وجه «جويل» بعض السخرية، وهو يقول:

– آه، أعترف لك بذلك، فأنا ابن «جيمس كنغدوم» صاحب مصرف «كنغدوم»، ولا شك في أن ذلك يحقق لي بعض الامتيازات، ومع ذلك أجرؤ على أن أقرر أن موهبتي هي التي تضمن العيش لي، وليس لاسمك في هذا فضل. فقال «جيمس» في

شيء من الجفاء:

– ووصية جدتك لأمك!

– وهذه أيضا على الرغم من أنني في السنوات الأخيرة أعدت توظيف معظمها. ومد «جيمس كنغدوم» يده يتحسس السيجار، وهو يقول:

– كم تستغرق من الوقت لتصل إلى هدفك من هذه الزيارة؟ لا شك في أن الموضوع يتعلق بـ«راشيل» طبعا؟ وسأله «جويل» بلهجة ساخرة:

– وكيف عرفت أن هذا هو الموضوع؟

– لم أعمل ذهني، أخبرني «فرنسيس». وعلق «جويل»:

– أكاد أفهم... وكيف استطلعت ذلك منه؟

– الحق أنني كنت أود أن أراك... ولما لم أجدك سألت «فرنسيس» عن مكانك. وعلق «جويل» بلهجة متشككة:

– وهو أخبرك؟ بهذه البساطة؟

– لا! كان حريصًا للغاية! وقال إنه كان يظن أنك ذهبت مع «إريكا» لمدة يومين.

– ثم؟

– أجابت «إريكا» بالهاتف.

– وطبعًا لم تكتف بما قاله «فرنسيس» وحاولت أن تتأكد، وماذا قالت لك؟

– ما أخبرتها أنت به على ما أعتقد... أنك كنت في عمل في «يوركشاير». وتكلم «جويل»، وكأنه يلعن:

– أفهم! لست محتاجًا الآن إلى أن تذهب إلى أبعد من هذا... بإمكاني أن أخمن ما حدث بعد ذلك، وأستطيع أن أفهم لماذا كتم عنك «فرنسيس» الخبر؟ وعلى أية حال، فالمهم أنني رأيت «راشيل»، ورأيت ابنتي! ورفع الوالد حاجبيه من جديد، وقال:

– ابنتك؟!

– نعم، ابنتي... وإذا كنت تظن أنني سوف أسمح لك بأن تأخذها بعيدًا عني، فإنك تخطئ خطأ كبيرًا! ورد الأب بهدوء:

– لا أعتقد أن لك رأيًا في الموضوع، ولا تظن أن بإمكانك أن تهددني! ووضع «جويل» راحتي يديه على المكتب، وهو يسأل في تحدٍّ:

– تعتقد أن لا رأي لي في هذا الموضوع! وتنهد الأب بقلق، وقال:

– كف عن التصرف بهذه الطريقة الحمقاء، يمكنك أن تتفوق علي جسديًا، لكن ماذا يفيد ذلك؟ هل تظن أن «راشيل» تعجبها مثل هذه الوسائل البدائية، هل يصل بك الأمر إلى ذلك؟

– دعنا نستبعد اسم «راشيل» عن الموضوع مؤقتًا، هل نتفق على ذلك؟

– لا أفهم كيف؟! إن لها فيه شأنًا كبيرًا. وهنا نهض «جيمس كنغدوم» – رغم مشيئته– على قدميه، فقد هُيِّئ له أن منظر ابنه وهو يطل عليه كان يعني تهديدًا لكيانه، وقال:

– نحن متمدنون يا «جويل»، حاول أن يكون سلوكك في هذا الإطار. ورد «جويل» بعنف:

– هل من التمدن أن أقبل بأن يتزوج أبي المرأة التي حملت طفلتي؟

– لم تكن تعرف شيئًا عن «راشيل» وهي تحمل طفلتك... يا «جويل»!

– لكنك أنت كنت تعرف!

– في الحقيقة... نعم.

– ماذا؟ ماذا قلت؟ وتزحزح «جيمس كنغدوم» بشيء من الضيق، وأجاب:

– سمعت ما قلته يا «جويل»، كنت أعرف، كنت أعرف أن «راشيل» كانت تنتظر منك طفلا! وهز «جويل» رأسه، وهو لا يكاد يصدق، على الرغم من كونه سمع الكلمات، سمعها بوضوح تام، ولكنه لم يستطع أن يصدق ما سمع، وتصلبت قبضته على سترة أبيه وقال في شيء من القسوة:

– ماذا تقول؟ كيف استطعت أن تعرف أن «راشيل» كانت حاملا؟

– إنني... إنني كنت أعرف... حاول أبوه أن يجذب سترته من قبضة «جويل» وأكمل:

– جاءتني «راشيل»... وكانت يائسة، وطلبت مني المساعدة.. كانت عينا «جويل»،

وهو يسمع ذلك ، تلمعان كخيوط من الجليد، وصار يردد:

– هي! طلبت مساعدتك! وما الذي استطعت أن تفعله من أجلها؟

– أعطيتها المال لتتخلص من الجنين بالإجهاض.

– إجهاض! ولكن... ولكن... وختم له أبوه الجملة بشيء من البرود:

– ولكنها لم تستخدم المال في إجراء عملية الإجهاض، بل استخدمته في الهرب إلى الشمال، لتعيش فيه وهي تنتظر ولادة الطفل. وسأله «جويل»:

– وكنت تعرف ذلك؟

– لا! قلت لك إنني أعطيتها النقود لتتخلص من الجنين بالإجهاض... ولم أكن أعرف أنها لم تفعل ذلك. كان «جويل» يشعر بصداع شديد أشد من أي وقت مضى، منذ أن سمع أن «راشيل» كانت على علاقة بأبيه... «راشيل» تتوجه إلى أبيه وتتجنب عن عمد أن تخبره هو بأنها حامل! ونشق نفسًا طويلاً، ونظر إلى أبيه من جديد:

– ولم يخطر لك بالطبع أن تخبرني؟ أليس كذلك؟

– ألحت عليّ «راشيل» في الرجاء ألاّ أفعل؟

– ومنذ متى كنت تحترم رغبات الآخرين؟ وأخذ «جيمس» يتحسس كرسيه المصنوع من الجلد وبدأ يهوي بجسمه ببطء على الكرسي، وصار ينظر بمرارة إلى ابنه، ويقول بصوت أجش:

– إذا كان استعراض البطولة قد انتهى، فإنني أقترح أن نتناول الموضوع الآن بطريقة هادئة متعقلة.

– وكيف أتصرف لكي أكون هادئًا ومتعقلاً كما تريدني؟

– أريد ألا تتدخل في هذا الموضوع! إنه موضوع بيني وبين «راشيل».

– لا يمكن أن يكون كذلك بعد الآن... أريد أن أعرف بأي حق أعطيت «راشيل» المال لتبدد طفلي؟ عندئذ ضرب «جيمس كنغدوم» على المكتب بعنف، وقال:

– إنك تتصرف بطريقة مثيرة يا «جويل»؟ كانت «راشيل» في يأس شديد، هل كنت تريد أن أطردها؟ وأقبل «جويل» على المكتب من جديد، وهو يقول:

www.rewity.com

– كان بإمكانك أن ترسلها إليّ، بل كان بإمكانك أن تخبرني.

– هل تعتقد أنها كانت تقبل الذهاب؟ أعني... إليك؟ وكانت ملامح «جويل» تعبر عن الازدراء، وقال:

– أعتقد أنك لم تكن تريدها أن تفعل ذلك، يا لها من فرصة أتيحت لك لترد بها على سلوكي إزاءك عندما كنت في كل مناسبة أظهر العناد لتسلطك.

– هراء. ورد «جويل» بسخرية:

– هراء؟ لا أظن ذلك. وسأله «جيمس» بغضب:

– ألا يخطر لك أن تفكر لماذا لم تحضر «راشيل» بنفسها إليك؟

– لا... كانت تعلم أنها إن حضرت إليّ فلن أعطيها النقود من أجل الإجهاض.

– إذن، ماذا كنت ستفعل؟ تردد «جويل» للحظة قصيرة، وقال:

– كنت سأتزوجها. وحدّق إليه «جيمس» بسخرية، وقال:

– هل كنت تفعل ذلك؟ هل تتصور بأمانة أن «راشيل» كانت تقبل الزواج بك في تلك الظروف؟ يا إلهي! إنك متعجرف يا «جويل»!

– من شابه أباه فما ظلم يا أبي! ورد «جيمس» ساخطًا:

– اهدأ... إن «راشيل» لم تأت إليك، لأنها عرفتك على حقيقتك، شخصًا متطلعًا أنانيًا، كنت أكبر منها بعشر سنوات، ولم يمنعك ذلك من أن تشبع رغبتك على حساب تدمير حياتها. وأشاح «جويل» بوجهه بعيدًا، وصار يدمدم بعنف:

– لم يكن الأمر كذلك، كنت أحبها. ونفخ الأب في الهواء من أنفه نفخة قوية تعبيرًا عن الازدراء، وهو يقول:

– الحب! إنك لا تعرف معنى الكلمة! واستدار «جويل» في غضب تجاهه، يقول:

– أنت إذن الذي يعرف معنى الحب؟ بعد أن تزوجت باثنتين! واغتمّ وجه «جيمس»، وقال:

– أحببت أمك يا «جويل»! كنت أحبها كثيرًا! وعندما ماتت... كانت أم «فرنسيس» على النقيض من ذلك، ولم يكن مقدرًا لزواجنا أن يغدو قصة حب، بل

عاش كل منا حياته الخاصة. وأكمل له «جويل» الجملة.

– مستمتعًا بها إلى أقصى حد... نعم... لم أكن صغيرًا حتى لا أدرك ما كان يدور يا أبي! كل أولئك الضيوف الذين يترددون على البيت، لم تكن قديسًا! ومع ذلك فأنت تجلس لتثرثر كالأطفال عن الأنانية وعن الطموح، ألم تكن أنت أنانيًا؟.. ألم تكن طموحًا؟

– من أجلك يا «جويل»! فقط من أجلك أنت! وهز «جويل» رأسه، وهو يقول:

– من أجلي!

– إنها الحقيقة... فأنت ابني الأكبر يا «جويل»! وابن المرأة التي كنت أقدسها. هل تلومني لأنني أردت أن أصوغك في القالب الذي أراه؟ وقاطعه «جويل» وهو يذرع أرض الغرفة بشيء من القلق:

– على شاكلتك! نعم! إن هذا الكلام لن يؤدي بنا إلى شيء، لقد حولتنا عن الموضوع بما فيه الكفاية، أريد أن أعرف كيف عثرت على «راشيل» مرة ثانية؟ وكيف وصل بك الأمر إلى أن تطلبها للزواج؟ بل أهم من هذا أريد أن أعرف لماذا تقدم هي على مثل هذا الأمر؟ إن هذا كله يرتبط بموضوع الطفلة، موضوع «سارة»! ما مشكلة «سارة»؟ لماذا تتردد على المستشفى ولماذا يسمونها المقعدة؟ وسحق «جيمس كنغدوم» بقايا السيجار ليطفئه، وقال:

– ألم تسأل «راشيل» هذه الأسئلة؟

– إنني أسألك إياها؟ أو تفهم؟ وهز أبوه كتفيه استهجانا، وقال:

– إذا كانت هي لم تستطع أن تشفي غلتك للمعرفة، فإنني أخشى ألا يكون ذلك في طاقتي أنا أيضا.

– أبي، إنني أحذرك! ونهض الأب على قدميه مرة ثانية، وقال:

– لا! أنا الذي أحذرك يا «جويل»! ابتعد عن هذا الموضوع! لقد مضت عليك سنوات، وأنت تعامل هذا البيت بازدراء، ولم تكلف نفسك عناء السؤال عني أو عن صحتي، كل ما أطلبه هو أن تبقى بعيدًا عن الموضوع، استمتع بوقتك مع الآخرين الذين تهتم بهم، أعتقد أنه يغيظك أن ترى «راشيل» تفضلني عليك، لكن سوف

www.rewity.com

تعتاد ذلك.

– إن أمر «راشيل» لا يعنيك.

– على العكس، إنني مغرم بها، إنني أحبها كثيرًا، ولقد أحببتها دائمًا، حتى عندما كنت تسمم عقلها ضدي. ودمدم «جويل» بمرارة:

– ينبغي أن تعترف بأنه كان لذلك ما يبرره.

– ربما... إنني أعترف... لم أكن دائمًا ذلك الخيِّر الكريم، ولكن الزمن يتغير. كان «جويل» يحس بألم شديد فوق جفنيه، وقال:

– أتفق معك أن الزمن يتغير، ولكنك أنت لا تتغير. ثم سأل:

– وماذا قلت لها عني؟ وهز «جيمس» كتفيه وأجاب:

– قد لا تصدق يا «جويل»! بأننا نادرًا ما كنا نتحدث عنك، مرت «راشيل» بأوقات عصيبة في السنوات الأخيرة، وإنني أعتزم أن أذلل لها كل الأمور. جعل «جويل» يده تتخلل شعره، وعلق:

– كان بوسعك أن تذلل لها الأمور دون أن تتزوجها. وبدت ابتسامة ساخرة على وجه أبيه، وهو يقول:

– ماذا؟ وأترك الميدان مفتوحًا أمامك يا «جويل»! أوه، لا، إن الاتفاق الذي عقدناه أنا «وراشيل» لم يبق منه إلا توقيع عقد الزواج.

عاد «جويل» إلى شقته التي تطل على حديقة «ريجنت بارك»، وكان الصداع يدق رأسه بعنف، إذ ترك منزل أبيه قبل أن تنهار سيطرته على نفسه تمامًا، وبلغ الغضب منه مبلغًا لم يعهده في نفسه من قبل، وقاد سيارته إلى مكان الانتظار في الممر السفلي، واستقل المصعد إلى الطابق العلوي، وعندما دخل شقته أجفل عندما وجد مصباحًا لا يزال مضيئًا في غرفة الجلوس، وأن امرأة شابة كانت ترقد على الأريكة الفرنسية المصنوعة من المخمل. كان قد أيقظها صوت الباب وهو يغلقه، فرفعت رأسها بابتسامة تعبر عن الترحيب، وقالت وهي تمد ذراعيها البيضاوين المتلئتين:

– «جويل»! حبيبي! خفت ألا تعود! وهبط «جويل» درجتين منخفضتين تؤديان

إلى وسط الغرفة، وقال وهو يحل أزرار سترته:

– ماذا تفعلين هنا يا «إريكا»؟ وارتفع حاجبا «إريكا غراي» الرقيقان في شيء من التقوس، وقالت توبخه بلطف:

– أهذا هو اللقاء الذي أنتظره منك يا حبيبي؟ لابد من أن العمل الذي سافرت من أجله إلى «يوركشاير» لم يكن مُرضيًا كما كنت تنتظر. وجاوزها «جويل» متجهًا إلى المنضدة المتحركة للمشروبات التي كانت مسندة إلى الحائط، وأخذ يعد لنفسه كأسًا اجترعها قبل أن يقول:

– هل «هيرون» هو الذي فتح لكِ الباب؟ وأجابت بجفاف:

– نعم، منذ أربع ساعات! ما الخبر يا «جويل»؟ ألا يسرك أن تراني؟ ونهضت من فوق الأريكة، ووقفت أمامه، وكان شعرها الكستنائي الداكن يتجعد بشكل أنيق حول رأسها الصغير، وكان كعبا حذائها يضيفان عدة بوصات إلى قامتها القصيرة التي لا تزيد على مائة وخمسين سنتيمترًا. وتذكر أن قامة «راشيل» كانت أكثر ارتفاعًا، ولكنه سرعان ما طرح الفكرة بعيدًا بشيء من الغضب والتنهد، وقال:

– أسف يا «إريكا»، أنا متعب تمامًا، أعاني صداعًا شديدًا، ولا أريد سوى أن أستحم وأنام. واقتربت منه ويداها مبسوطتان، تقول:

– أوه! يا حبيبي! هل أحضر لك شيئًا، قرص أسبيرين مثلا أو كوب ماء معدني فورًا. قالت ذلك وقد تشابكت أصابع يديها، وهز «جويل» رأسه، وهو يقول:

– لا! لا! أشكرك! لا شيء. ولمس جبهته بيده، وهو يضيف:

– آسف! سامحيني! وصار لسان «إريكا» يتحسَّس شفتها العليا، فقد أحست بشيء من القلق، وكانت تعرف أن أية لفظة غير محسوبة يمكن أن تشعل نارًا كبيرة، وقالت وهي تتحسس عباءتها التي كانت قد ألقت بها على ظهر الأريكة عند وصولها:

– سأذهب، وسأطلبك بالهاتف غدًا، هل أفعل؟

نظر «جويل» إليها بقلق، وبدأ يحس بالازدراء لنفسه لذلك التصرف الذي بدر منه إزاءها دون قصد، ولكنه لم يكن الآن في حالة تسمح له بأن يتصرف بطريقة لبقة،

ومع ذلك كان في ظروف أخرى، يسعد بمؤانستها، ولم تكن «إريكا» ترهقه بأية تكاليف، إذ كانت تكفل نفسها، وكانت على قدر كبير من الذكاء، وكان يعرف أنها تتطلع إلى زواجه في النهاية، ولم يكن ليشعر بالضيق لذلك، إذ كانت مطالب عملها تتوازن مع مطالب عمله. ولم تكن لتفكر في إنجاب الأطفال... ولكن شيئًا ما حدث فجأة. وبدأ «جويل» يثور على نمط حياته القائم على الأنانية. وكان كل ما رآه في تلك الليلة عينين قاتمتين عاصفتين تحملقان إليه في كراهية بادية... كان ذلك خبلاً وجنونًا... ولكن هاتين العينين كانتا تلاحقانه. ومع ذلك هل من الخبل أن يريد الإنسان من ابنته أن تحبه؟ لم يستطع أن يشرح شيئًا من ذلك لـ«إريكا»، وتركها تفكر فيما تشاء بسبب سلوكه غير الودي نحوها تلك الأمسية، ووضعت العباءة على كتفيها وسارت إلى الباب، وسار «جويل» خلفها ليوصلها:

- نعم، اطلبيني غدًا، طاب مساؤك يا «إريكا»!

- طبت مساء.

- 4 -

أخيرًا نامت «سارة»، ومشت «راشيل» على رؤوس أصابعها خارج الغرفة، وأغلقت الباب، وكان الأمر قد احتاج إلى بعض الوقت، لأن ما حدث ذلك اليوم كان جديدًا عليها، وارتفعت حرارتها بشكل ينذر بالخطر، لكنها أخيرًا بدأت تستغرق في نوم هادئ... وسارت «راشيل» إلى غرفة الجلوس حيث كان «جيمس كنغدوم» في انتظارها. كانت الشقة الجديدة في عمارة تقع في أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من طريق «آبي». كانت أرحب بكثير مما توقعت، ففضلاً على غرفة الجلوس الرحبة كان هناك مطبخ واسع وغرفتان للنوم، وحمام، والأثاث على درجة من الأناقة، وبدأت تدرك أن «جيمس» تحمل بالفعل الكثير من أجلها، وامتزج تعبيرها بالعرفان له بالجميل بشيء من الاحترام والوقار، وكان المنزل على مقربة من مستشفى «سانت مائيور» مما يسمح لها بأن تزور «سارة» عندما تدخل المستشفى وقتما شاءت. كان

«جيمس كنغدوم» يجلس على الأريكة المستطيلة عندما رجعت إلى غرفة الجلوس، ونهض عندما رآها تدخل وأجلسها إلى جواره، وهو يقول:

- تعالي، واجلسي، اسمحي لي أن أحضر لكِ مشروبًا. وأجابت وهي تجلس على حافة المقعد المريح:

- لا بأس! وأحضر لها شرابًا ثم قال:

- التعب بادٍ عليك يا «راشيل»! أعتقد أنك تفضلين النوم مبكرًا. وأومأت برأسها:

- كان يومًا متعبًا إلى حدٍّ ما. وأدركت أنه ينتظر منها شيئًا آخر، فأضافت:

- لقد كنت كريمًا عندما انتظرتنا على المحطة، ودعوتنا لتناول الطعام، «سارة» كانت فرحة. وعلق «جيمس»، وهو يستلقي في مقعده، وينظر إليها عن كثب:

- لم أفعل إلا الواجب، وبالمناسبة، في المطبخ مؤونة كافية، وأعتقد أن سكرتيرتي قامت بذلك كما ينبغي. وشكرته «راشيل» وكان «جيمس» قد قرر أن يجعل منها امرأة تليق بأن تقدم إلى الآخرين باعتبارها زوجته، وعلّق بطريقة عارضة:

- أعددت الترتيبات لتزوري الصالون الرمادي خلال هذا الأسبوع يا «راشيل».

ورفعت «راشيل» بصرها، وقالت:

- الصالون الرمادي؟ ماذا يكون ذلك؟

- الصالون الرمادي يا عزيزتي، محل متخصص في الملابس الجاهزة، تملكه إحدى صديقات «جويل»، نعم! اسمها «إريكا غراي».. وستقوم بنفسها على خدمتك، إذا عرفت من أنتِ!

- ماذا تعني؟

- لا! أعني أنك خطيبتي. كان صوته هادئًا رزينًا، وأكمل:

- ماذا ظننتِ؟ أخشى أن أقول إنني قصدت إغاظتك، كما أغظتني.. لقد كتمتِ عني أنكِ رأيتِ «جويل» بعد أن التقينا في آخر مرة. وأحست «راشيل» أنها أشبه بذبابة وقعت في نسيج عنكبوت ماكر، وأحست بأنه كان من واجبها أن تخبره بزيارة «جويل»، ولكن ذكرى تلك الزيارة كانت لا تزال فجة لا تصمد أمام الاختبار، وتجرأت على أن تسأل:

www.rewity.com

– وكيف عرفت بها؟

– أخبرني «جويل» بنفسه.

– «جويل»؟

– نعم! هل كنتِ تظنين أنه لن يخبرني؟ تصورت أن «جويل» ربما يفضل أن يتجنب المواجهة المكشوفة مع أبيه، وقالت بصوت خفيض:

– جاء منذ أكثر من أسبوع، ولكن العقيد لم يره، وكان يريد أن يرى «سارة».

– وأخبرته من أبوها؟ أليس كذلك؟

– بلى!

– لماذا؟ هل الشبه الكبير بينها وبينه جعلكِ تفعلين ذلك؟

– أنا! لا! كان من السهل أن تكذب، لكنها لا توافق وأضافت:

– لم يكن قد رأى «سارة» بعد عندما أخبرته. وتقوس حاجباه الكثيفان، وقال:

– إذن، لماذا فعلت ذلك؟ هزت رأسها وقالت:

– تشاجرنا مشاجرة عنيفة، كنت أريد أن يحس بصدمة الحقيقة، ونجحت.

– ولم تكوني تنوين أن تخبريني بذلك؟ على الأقل لآخذ حذري كما يقولون.

– لم يكن هناك متسع من الوقت بعد.

– لا! أعتقد أنه لم يكن هناك... و«سارة»... بالطبع لا تعرف شيئًا عن علاقتها بابني؟

– لا!

– حسنًا... فقط أحب أن أوضح أنه لا ينبغي أن يخفي أحدنا سرًا عن الآخر يا«راشيل»! ولا تنسي أنه دون مساعدتي لن يكون أمامك ملاذ إلا اللجوء إلى «جويل»؟ هل تريدين ذلك؟ وأجابته وفمها يرتعش:

– بالطبع، لا! إنك تعلم أنني لا يمكن أن أفعل ذلك! وأومأ «جيمس» بيده ليفض الأمر وهو يقول:

– وإذن فلن نقول كلاما آخر في هذا، أعتقد أن موعدك مع «لوريمر» هو صباح الغد، أليس كذلك؟

– بلى! في العاشرة.

– هل تحسين بشيء من الاضطراب؟

– هل تحس أنت بذلك؟ فأجاب:

– أشعر بشيء من القلق! ربما... ولكن «لوريمر» هو – دون شك – أكفأ رجل في ميدان تخصصه، وليس ثمه ما يدعو إلى القلق... وبدأت «راشيل» تتحدث بشيء من عدم الثقة، فقالت:

– ولنفرض أن العملية فشلت.

– عندئذ سوف تستأنف «سارة» علاجها الحالي، وينبغي أن تكوني أكثر تفاؤلاً! وارتشفت «راشيل» ما بقي في كأسها، وقالت:

– سأبذل جهدي. ووضع «جيمس» الكأس الفارغة على رف الموقد، وقال:

– سأخرج... بإمكانك أن تنامي... وسوف أمر بك مساء، قبل أن أسافر إلى «فرانكفورت» وسيكون هذا آخر مؤتمر أحضره بإذن الله. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، وكان الإنهاك يجثم على كاهلها وأدارت زر التليفزيون بشيء من التعمد، وحاولت أن تتتبع المسرحية المعروضة، لكنها كانت تشرد باستمرار، وعندما انتهت المسرحية وجاء شريط الأخبار، فلم تكن تدري ما يعرض على الشاشة أمامها.

كانت «راشيل» ترتعد، وهي تتذكر موجة الرعب التي لفتها عندما فتحت الباب لـ«جيمس كنغدوم»... وتعرف إليها في الحال، ورغم أنها لم تكن قد أخبرته بعد بموضوع «سارة»، فإن العقيد ذاته قد تحمس وناقش قصة مديرة منزله الجميلة التي فقدت زوجها قبل أن يولد رضيعها.. ولم يُضِع «جيمس» وقتًا في تقدير الموقف، بل وجد الفرصة ليتحدث إلى «راشيل»، وليسألها عن السر وراء اختفائها، ورغم أن «راشيل» لم تكن ترغب في أن تتحدث إليه، فإنها لم تستطع أن ترفض ذلك، لأنه كان ضيف مخدومها. وقررت أن تخبره بالحقيقة، وكان «جيمس» متعاطفًا معها وخاصةً عندما علم بمرض «سارة». قال لها إنه يريد زوجة وإنه ينوي أن يعتزل، ويخشى أن يعيش وحيدًا دون صحبة امرأة، واقترح على «راشيل» أن تنظر في قبول

www.rewity.com

الاقتراح إذا كانت تريد أن تؤمن حياتها وأن تجد السبيل لشفاء «سارة»... كانت فكرة الزواج بـ «جيمس كنغدوم» تبدو أول الأمر كاللعنة، ولكن المزايا التي سوف تجنيها بالنسبة إلى «سارة» هدأت من مخاوفها. كانت مدينة لـ«سارة» بكل ما تفعل، وكانت تفعل كل ما في طاقتها لا من أجل أن تعود «سارة» إلى حالة صحية طيبة فقط، ولكن لتطمئن إلى أن «سارة» لن تواجه الصراع نفسه من أجل الحياة كما فعلت هي من قبل، وكان «جيمس» هو جد الطفلة ويكنُّ لها بعض المشاعر الفطرية، وقال إنهم سيقضون معظم السنة في بلاد «اليونان»، ولو سار كل شيء كما ينبغي فإن «سارة» ستعود في النهاية إلى «إنجلترا» لتنتظم في الدراسة في إحدى المدارس هناك... وفكرت أنها سوف تنعم بكل ميزة يمكن أن يجلبها المال، وهي ميزات بإمكان «راشيل» أن تفكر فيها بعدما قضت ابنتها سنوات حياتها الأولى في دار للأيتام، ولن تكون محتاجة إلى أن تعمل إلا إذا رغبت هي حقًّا في ذلك، فكيف ترفض ذلك العرض؟

ونهضت «راشيل» من جلستها فأطفأت التليفزيون، ودخلت غرفة نومها. كان هناك باب يوصل غرفتها بغرفة «سارة»، تركته نصف مفتوح، واتجهت إلى فتحة الباب وأخذت تنصت باهتمام. كانت «سارة» تتنفس بهدوء مما يعني أنها بدأت تشفى من معاناة ذلك اليوم. وعلى غير ما تنتظر، نامت «سارة» نومًا هادئًا، واستيقظت على صوت غير عادي جاء من همهمة المرور على الطريق العام على بعد أمتار قليلة من المبنى حيث تقيم. وكانت شمس آذار (مارس) تنفذ من خلال الستائر، ومنَّت «راشيل» نفسها بالتفاؤل واعتبرت ذلك بشير خير، واستطاعت أن تسمع أصواتًا من الغرفة المجاورة، وعلت شفتيها ابتسامة، كانت «سارة» على ما يبدو تحاول أن تستطلع غرفة نومها دون أن توقظ أمها، وقالت وهي تنظر بعينين طارفتين:

– أنتِ كسولة، فلقد استيقظت قبلك بساعات.. ونظرت «راشيل» بطريقة آلية إلى ساعتها، ثم استرخت عندما رأت أن الساعة لا تزال الثامنة والنصف، وقالت:

– هل نمتِ جيدًا يا عزيزتي؟

– إنه فراش وثير يا أمي، هل سيكون لي فراش مثل هذا عندما نذهب لنعيش مع

ذلك الرجل؟ ورغم أن «جيمس» طلب إليها أن تناديه بكلمة «عمي» أصرت على أن تسميه «ذلك الرجل» مما سبب لـ«راشيل» بعض الضيق، وأجابتها «راشيل» باختصار:

– أعتقد أنك ستجدين في الحياة في الخارج شيئًا جديدًا.. (وأضافت) والآن اذهبي واغتسلي، بينما أقوم أنا بإعداد ملابسك للذهاب إلى المستشفى. وبدأت «سارة» تنهض من الفراش ببطء وسألت بقلق:

– لن أضطر إلى البقاء في المستشفى اليوم، أليس كذلك؟ وهزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– بلى إنك اليوم ذاهبة فقط ليراكِ الدكتور «لوريمر»، تذكرين الدكتور «لوريمر»، أليس كذلك؟ قابلته آخر مرة عندما كنا في «لندن»؟ وسألت «سارة»:

– عندما كنا نقيم في الفندق الكبير؟ وابتسمت «راشيل» ابتسامة خافتة، وقالت:

– تماما، والآن، هيا! اغتسلي! ودق جرس الهاتف، وأحست «راشيل» بأعصابها تتوتر وهي ترفع السماعة، كان المتحدث هو سكرتيرة «جيمس كنغدوم» وطمأنتها «راشيل» أن كل شيء على ما يرام، وشكرتها لما تحملته من أجلها، وأجابت السكرتيرة في أدب:

– حسنًا يا سيدة «فيلمور»، إنه واجبي. وأحست «راشيل» رغم ذلك أن السكرتيرة لم تكن راضية تمامًا عن الوضع. وخرجا إلى المستشفى بعد الإفطار. كان الدكتور «لوريمر»، الجراح المكلف بحالة «سارة»، رجلاً في أوائل الأربعينات من عمره يتمتع بمظهر يبعث الثقة في مرضاه، وكان يهتم بطريقة خاصة بالأطفال، وأدركت «سارة» ذلك من زيارتها الأولى. ورغم أنها لم تقابله إلا مرة واحدة من قبل، سمحت له بأن يفحصها دون أن تبدي أي اعتراض، ولم يستغرق الفحص وقتًا طويلاً، وقدمت «راشيل» للطبيب فيما بعد سائر الوثائق اللازمة، بينما كانت «سارة» تلعب مع «هيلغا»، دميتها. واتخذت الترتيبات اللازمة لتدخل «سارة» المستشفى، وأحست «راشيل» بارتياح كبير عندما انتهت المهمة. وحضر «جيمس كنغدوم» إلى الشقة مرة ثانية تلك الأمسية، وأخذت «سارة» تتحدث عن زيارتها إلى المستشفى وعن الدكتور

www.rewity.com

«الوريمر» بلطفه ورقته، وأحست «راشيل» بالارتياح لوجود الطفلة، مما ساعد على تحاشي وجودهما على انفراد ولو لفترة. ومع ذلك كان على «سارة» أن تذهب في النهاية إلى مخدعها، وعندما رجعت «راشيل» لتجالس ضيفها في غرفة الجلوس، كان يبدو عليها الارتياح التام، وساعدها على الجلوس على كرسي مريح، وقدم إليها كأسا من الشراب، وقال:

– ألا ترين أن «سارة» تشعر بالاستقرار تماما، لن يكون الأمر صعبًا كما نتصور!

وخطر لـ«راشيل» أن الأمر ليس كذلك تماما بالنسبة إلى «سارة»، ولكنها مع ذلك قالت:

– الأطفال يتكيفون سريعًا، وهذه إحدى ميزات صغر السن. وطقطق «جيمس» لسانه كعلامة على عدم الموافقة، وقال:

– إنك تتحدثين كأنك في أواسط العمر، إنني أعجب بشبابك يا «راشيل»! ومن يدري؟ فربما لا تزال أمامنا الفرصة ليكون لنا أطفال ننجبهم معًا. وتصلبت «راشيل» بعض الشيء، ولم تكن لتستطيع أن تتحمل الموقف، وقالت بارتباك:

– أوه، لا أدري. ولم يكن «جيمس» ينصت إليها، وواصل الكلام:

– سأتغيب حوالي عشرة أيام، ولعل ذلك يكون وقتًا كافيًا تعتاد فيه «سارة» على ظروفها الجديدة، ليس هنا فقط، وإنما في المستشفى كذلك، وعندما أعود يمكن أن نتحدث عن ذلك، اطمئني، فجميع الترتيبات اللازمة قيد التحضير. وأومأت «راشيل» برأسها، وقالت:

– أعرف، فقد أخبرني الدكتور «الوريمر».

– حسنا! وسوف يحرص على أن يزودك بالأخبار أولاً بأول، هل أنت مطمئنة إليه؟

– نعم، وعندما تنتهي العملية؟

– ستكون بلاد «اليونان» مكانًا أمثل للنقاهة، واسترداد الصحة.

– ولكن... المصرف؟

– «فرنسيس» ليس سيئًا يا عزيزتي، ويستطيع أن يتصرف.

– لكن كم يطول ذلك؟ أنت تعرف يا «جيمس»، أنك أخبرتني.

– أخبرتك أنني كنت أتمنى أن يحل «جويل» محلي ولكنه رفض، سوف يكون على «فرنسيس» أن يتحمل المسؤولية الآن، وإذا سار كل شيء على ما يرام، فربما تؤاتيني الفرصة ليكون لي طفل على صورتي. كان متحجر القلب فيما يخص العمل، وكانت «راشيل» تعرف عنه ذلك من «جويل» منذ سنوات مضت، ومع ذلك كان من الصعب تماما عليها أن تتصور نفسها أمًا لطفل منه. وأفرغ «جيمس» كأسه، وصار ينظر إليها بإمعان، وقال:

– وبالمناسبة، اتخذت الترتيبات لكي تحضر السيدة «تالبوت» إلى هنا وتقيم معك خلال الفترة التي تقضيها «سارة» في المستشفى. وقطبت «راشيل»، وقالت:

– السيدة «تالبوت»، آه، مديرة المنزل التي تعمل في بيتك... (وهزت رأسها وأضافت) ليس ذلك ضروريًا.

– لا أتفق معك، فأنا لا أحب أن تقيمي هنا وحدك عندما لا أكون موجودًا لأعنى بك.

– ولكن «سارة» ستقضي في المستشفى ليلة واحدة.

– وعلى الرغم من ذلك أفضل أن أطمئن أنكِ لست وحيدة. كان متصلبا لا يقبل المناقشة، ولم تجد «راشيل» ما ترد به، ولكنها لم تستطع أن تمنع خاطرًا خطر لها حول ما إذا كان لـ«جويل» أية علاقة بهذا الاهتمام الواضح الذي يبديه برعاية شؤونها. وفي الصباح التالي، قبل أن يطير «جيمس» إلى «فرانكفورت» اتصل بـ«راشيل» هاتفيًا من المطار، وقال:

– نسيت أن أخبرك يا عزيزتي، أن الآنسة «كلاي» ستزورك هذا الصباح لتصحبك إلى محل الأزياء الذي أخبرتك به. وكانت الآنسة «كلاي» تعمل سكرتيرة له، واعترضت «راشيل»:

– ولكنني لا أريد أية ملابس أخرى.

– اتركي لي تقدير ذلك، وأرجو أن تسمحي لي بأن أجعلك ترتدين ما يليق بمكانة أسرة «كنغدوم».

– ولكنني لست بعد عضوًا في أسرة «كنغدوم» يا «جيمس».

– سوف تصبحين كذلك عما قريب يا «راشيل» أرجو أن تستجيبي لطلبي، وإنني أتطلع إلى أن أرى التغيير عند عودتي. لم تعط «راشيل» وعدا قاطعا عندما وضعت السماعة، وكالعادة لم يكن هناك جدوى من محاولة التوضيح بأنها تفضل أن تبقى مستقلة حتى يتم الزواج، لكن إذا صممت الآنسة «كلاي» أن تأخذها إلى «الصالون الرمادي»، فإن ما بقي معها من النقود على ضآلته سوف ينفد إذا ما حاولت أن تشتري ملابس جديدة. كانت «ليديا كلاي» امرأة في نهاية العقد الرابع من عمرها، عملت في مؤسسة «كنغدوم» منذ كانت آنسة صغيرة، ولأنها كانت سكرتيرة المدير، انعكس ذلك على سلوكها الذي كان يتسم بالتحديد والتصميم. وصلت «ليديا» في سيارة أجرة لتصحبهما إلى السوق، وكانت السيارة في الانتظار عندما غادرتا المبنى، وكان «الصالون الرمادي» يقع في زقاق يتفرع من شارع «ريجنت»، ولم يكن في مظهره من الخارج ما يجتذب الزائر إليه، لكن ما إن يجتاز الزائر الباب الزجاجي الدوار حتى يحس في الحال بشيء من التوقع الغامض الذي يثير الاهتمام، وكانت هناك ستائر من الشيفون الوردي والقرنفلي تحجب كل شيء. ولم تكن الملابس أو الفساتين معلقة كما تعودت «راشيل» من قبل في محلات أخرى. أما «سارة» فقد كانت تنظر حولها باهتمام وهي ترتدي سروالها الجينز وسترتها المصنوعة من الفراء ذات القلنسوة، بينما تتدلى «هيلغا» من يدها كالعادة، وقالت في صراحة الأطفال:

– المحل فارغ من السلع يا ماما، هل حدثت تصفية؟ وانتفضت شفتا الآنسة «كلاي» عندما سمعت ذلك، وكانت إحدى البائعات تجتاز المكان، فأخفت الآنسة «كلاي» شعورها بدرجة كافية وقالت:

– صباح الخير.

– أوه، صباح الخير يا آنسة «كلاي». وواصلت السكرتيرة كلامها مع البائعة بشيء من اللطف:

– الآنسة «غراي»، هل هي موجودة؟ وأجابت البائعة:

– موجودة بالفعل، سنسير في هذا الاتجاه. كانت «راشيل» تتوقع الآنسة «غراي»

على شيء من الجمال المهيب، ولكن «اريكا غراي» كانت ضئيلة الجسم، وعندما ظهرت بأناقتها في بذلة رمادية محكمة على جسمها وشعرها الذي يميل إلى السمرة، جعلت «راشيل» تشعر في أعماقها أنها طويلة القامة تعوزها البراعة، فضلا على أن النظرة السريعة التي ألقتها على ملابس «راشيل» كانت مهينة لها، وحيتها بشيء من البرود، وهي تقول:

– أنت إذن السيدة «غيلمور» أخبرني السيد «كنغدوم» بقدومك، أهلا بك، اسمي «إريكا غراي». ونظرت الآنسة «غراي» نظرة خاطفة إلى الآنسة «كلاي» ثم وقع بصرها على «سارة»، وقالت:

– أهذه ابنتك يا سيدة «غيلمور»؟ وأومأت «راشيل» برأسها، وأجابت:

– نعم، هذه «سارة». وتقوست شفتا «إريكا» الرقيقتان إلى أسفل، وقالت:

– أهلا يا «سارة»! ولكن «سارة» لم ترد التحية، وأخذت تحدّق النظر في شيء من العناد، ولاحت آثار غضبة بسيطة على جبين «إريكا» الأملس، وكان من الواضح أنها أخذت بالشبه الواضح بين الطفلة وأسرة «كنغدوم»، ولحسن الحظ تذكرت «راشيل» أن «جيمس» كان من الأسرة ذاتها. وقالت «إريكا» وفي نبرات صوتها ما يدل على أنها تقصد توجيه إهانة مُقنّعة إلى «راشيل»:

– ولكنها لا تشبهك كثيرا يا سيدة «غيلمور»، أليس كذلك؟ واستجمعت «راشيل» كل ما بقي لديها من آثار الثقة بالنفس، وقالت:

– لا يا آنسة «غراي»، إنها لا تشبهني، والواقع أنها تشبه جدها إلى حدٍّ كبير. قالت ذلك دون أن تبالي بالطريقة التي تفسر بها الآنسة «غراي» ذلك. وجلست الآنسة «كلاي» لا تتكلم إلا قليلا، وقد تجاهلت «سارة» تماما، ودام صبر «سارة» بعض الوقت، فجلست على كرسيها وقد فتنها التغيير الذي كان يحدث في مظهر أمها، ولكنها بعد أن امتدت الدقائق إلى الساعة وامتدت الساعة إلى الساعتين بدأ يعتريها القلق، وصارت تسأل:

– كم من الوقت يطول بقاؤنا هنا؟ ولم يكن بوسع «راشيل» أن تجيب عن سؤال ابنتها، وذلك بسبب انشغالها كلية مع الآنسة «غراي»، وفضلا على ذلك مضى

عليها وقت طويل لم تكلف نفسها فيه مشقة العناية بمظهرها أكثر من أن تبدو نظيفة مهذبة، ولاح لها رغم مشيئتها أنها بدأت تستمتع بهذه الخبرة الجديدة، وعندما خرجت من إحدى المقصورات كانت ترتدي ثوبًا من القطيفة في لون الياقوت الأزرق له صدر منخفض ضيق، وكُمّان طويلان محبوكان حبكت على زنديها قبل أن يتدليا باتساع عند الكوع في زي يشبه ما كان سائدًا في العصور الوسطى، عند ذلك سمعت صوت رجل في القاعة الخارجية، وقبل أن تجد الوقت لتصلح من شأنها خطا الرجل بخطوات واسعة من خلال الستائر، ووقف في مواجهتهن، وكان الرجل هو «جويل»، وتركت «إريكا» كل ما في يديها في الحال، وذهبت للترحيب به:

– يا حبيبي، ماذا تفعل هنا؟ ونظر «جويل» من فوق رأس «إريكا» إلى «راشيل»، واندفع الدم إلى وجنتيها من تلك النظرة، وقال في شيء من السخرية:

– أوه، لقد ظننت أنه من المناسب أن ألقي نظرة على تلك التي ستغدو زوجة لأبي.

– 5 –

كانت «إريكا» الشخص الوحيد الذي لم يبد الدهشة لحديث «جويل»، ولكنها كانت عندئذ منهمكة في اختيار الأزياء المناسبة لـ«راشيل» وفقًا للتعليمات التي تلقتها من «جيمس كنغدوم»، وكان الأمر بالنسبة إليها عملاً يتطلب الإنجاز، أما الآنسة «كلاي» فقد كانت تنظر بشيء من عدم الموافقة، وأما «سارة» فكانت عابسة مقطبة، وبالنسبة إلى «راشيل»... حسنًا، خطر لها وهي تحاول أن تستعيد رباطة جأشها أن «جويل» أراد أن يثيرها، ونجح في ذلك. والتفت «جويل» من «إريكا» إلى «سارة»، وقال وهو ينحني تجاهها ليقترب منها:

– وما رأيك في ملابس ماما الجديدة؟ وجعدت «سارة» أنفها، وزمت شفتيها وحدقت إلى وجهه، وابتسم ابتسامة عريضة انعكس أثرها بطريقة تثير الدهشة فيمن حوله، فقد بدا أقل عمرًا بكثير مما هو، وعلق بشيء من الحدة:

– هذا وجه جميل لطيف... والآن أريده أن يعبر عن الغضب والقبح. وزمت «سارة» شفتيها بطريقة أكثر تشددًا، ولكن شيئًا ما في ابتسامته جعلهما تتذبذبان، وقالت:

– ابتعد عني.. أنا لا أحبك... قالت ذلك عندما لم تستطع أن تحتفظ بالتكشيرة لوقت أطول، ولم تملك الآنسة «كلاي» إلا أن تطقطق لسانها في شيء من الاستنكار، ولأول مرة نطقت «راشيل»، وقالت:

– «سارة»! ورفع «جويل» بصره إليها بشيء من الاستخفاف، وقال ساخرًا:

– حسنًا! حسنًا! أنت ذاهبة إلى حفل راقص يا سندريلا! وامتقع وجهها، واستدار «جويل» ثانية إلى الطفلة، وأمسك براحة «هيلغا» الطليقة، وقال:

– ألا تشعرين بالملل، وأنت تجلسين هنا تتفرجين على معرض الأزياء، أعرف مكانًا يباع فيه الآيس كريم، ألا تفضلين أن تأتي معي لنأكل الآيس كريم حتى تنهي ماما مهمتها؟ وجذبت «سارة» «هيلغا» من يده، وهي تقول:

– لا! وألح عليها قائلاً:

– هل أنت متأكدة؟ إنهم يبيعون الـ «ستيك» المصنوع من عصير الفواكه المجمد كذلك! وردت «سارة»:

– أنا لا أحب الـ «ستيك». ولكن صوتها لم يكن يبدو مقتنعًا على الإطلاق، وعندئذ انفجرت «راشيل» قائلة:

– كف عن محاولة رشوتها يا «جويل»... اجلسي يا «سارة»... لن نتأخر كثيرا، وبعدئذ سوف أشتري أنا لكِ الآيس كريم، «سارة» لا تريد أن تذهب معك يا «جويل»؟ ووجه انتباهه إلى «سارة»، وأخذ يسألها:

– حقًا يا «سارة»؟! أنتِ لا تريدين أن تذهبي معي؟ ألا تحبين أن تخرجي معي للنزهة في سيارتي؟ إنني أحب أن أرسم لكِ صورة.

– صورة لي؟ وأخرج من جيبه ورقة مطوية من أوراق الرسم، وأشار إلى «سارة» أن تقترب منه، وفتح الورقة، وترددت «سارة» لحظة. ونظرت إلى أمها تطلب الموافقة، ولكن «راشيل» لم تستطع أن تستجيب. كانت «سارة» مرسومة بدقة وعناية، ولم

www.rewity.com

تكن «راشيل» لتعرف اللعبة التي أراد أن يلعبها أو ما يريد أن يصل إليه، ولكنها كانت تحتقره لاستغلاله «سارة» بتلك الطريقة. أما عن «سارة» فلم تكن لتدري شيئًا عما يدور في الخفاء، وكانت الكراهية التي أحست بها أول الأمر، قد بدأت في الذبول تحت وطأة ميلها الفطري للاستطلاع، وأقدمت لتلقي نظرة على الورقة التي كان يمسك بها، وصاحت بدهشة:

– إنها أنا... أليس كذلك؟ وأومأ «جويل» بشيء من التسامح:

– هل تعجبك؟ وجذبت «سارة» الورقة من يده، وركضت إلى أمها تعرض الصورة النصفية المرسومة بالفحم، والتي تبرز رأسها وكتفيها بشيء من الزهو، وكان من الواضح أن «جويل» رسمها من الذاكرة، كان الرسم ممتازًا! ككل أعماله، وتوترت عضلات معدة «راشيل» واحتاجت إلى مجهود كبير لتبدي الموافقة، وقالت:

– إنها... إنها جميلة جدًا يا حبيبتي! وأخذت «سارة» الصورة مرة ثانية وصارت تقبلها وهي معجبة بها، وقالت:

– شعري يبدو جميلاً، أليس كذلك؟ لكن كنتُ أُفضّل أن أكون مبتسمة! وعلّق «جويل» في مرارة:

– ولكنكِ لم تكوني باسمة في وجهي عندما رأيتكِ أول مرة. ونظرت إليه في ثبات وكأنها تتفحصه، وسألته:

– لو تركتك ترسمني مرة أخرى، هل ستجعلني أبتسم؟ وتدخلت «راشيل»، وقالت:

– «سارة»! السيد «كنغدوم» لديه أعمال كثيرة، وأعتقد أن لديه أعمالا أهم من مجرد رسم الفتيات الصغيرات. وقال يعترض على كلامها:

– على العكس! ليس أحب إلى نفسي من أن أرسم «سارة» مرة ثانية، هذا إذا وافقت على أن تأتي لتناول الآيس كريم معي، أنا لا أحب أن آكل الآيس كريم وحدي. وكزت «سارة» على شفتها السفلى بينما تحدثت «إريكا» بلهجة بدا فيها شيء كبير من الرقة:

– كنت أعتقد كما أخبرتني أن لديك محاضرات تلقيها هذا الصباح! وهز «جويل»

كتفيه، وقال:

– قررت أن أتغيب اليوم. وصدرت عن «إريكا» بعض إيماءات تدل على قلقها، وقالت:

– لا تكن مازحًا، أعتقد أنك لم تحضر هنا فقط لتدعو «سارة» إلى الآيس كريم. وضاقت حدقتا عينيه، وقال ساخرًا:

– لماذا يا «إريكا»؟ هل تريدين آيس كريم أنتِ أيضًا؟ واستدارت «إريكا» بعيدًا عنه في شيء من الاشمئزاز. غدت «سارة» ممزقة بين رغبتها في أن ترضي أمها وبين الإغراء، ليس فقط بتناول الآيس كريم، بل أيضا بأن ترسم لها صورة أخرى، وهمست بصوت خفيض يمتزج بالشك:

– مامي، هل تغضبين إذا ذهبت مع السيد «كنغدوم»؟ وتجنبت «راشيل» نظرة «جويل»، وسألت بطريقة متقطعة:

– هل هذا هو ما تريدينه؟ وأجابت «سارة» في شيء من التردد:

– لمدة قصيرة فقط، لن أتأخر، هل أذهب؟ ورفعت عينيها إلى «جويل»، الذي أجاب، وهو يهز كتفيه:

– يمكنك أن تتغيبي كما تشائين، أعرف عنوان سكنك. كانت «راشيل» في موقف صعب للغاية، وكلاهما يعرف ذلك، ودمدمت بطريقة تنقصها الكياسة:

– حسنا! يا «سارة»، أرجو أن تسلكي بطريقة سليمة، لا داعي للثرثرة! كانت «سارة» تعرف ما يعنيه ذلك، وفهمت أنها لا ينبغي أن تتحدث عن مرضها، وابتسمت ونظرت «راشيل» إليها، ومد «جويل» يده إليها، فأمسكت بها وخرجا معًا، وكان الجو قد أصبح متوترًا بدرجة واضحة بعدما خرجا. وعلقت «إريكا» وهي تشد بقسوة سحّابة رداء من المخمل:

– لم أكن أدري أن «جويل» يعرف ابنتك إلى هذه الدرجة. وخطت «راشيل» خارج الرداء، وهزت رأسها، وقالت في شيء من التسرع:

– هو لا يعرفها بهذه الدرجة، قابلها مرة واحدة من قبل. وردت «إريكا» وفي صوتها نغمة الشك:

www.rewity.com

– ومع ذلك يرسمها من الذاكرة، لم أكن أظن أنها تبقى في ذاكرته إلى هذا الحد... بالطبع هي سوف تصبح أخته من أبيه عندما تتزوجين «جيمس كنغدوم»، أليس كذلك؟ ونشقت «راشيل» نفسًا عميقًا، وقالت:

– أعتقد أنني شاهدت قدرًا لا بأس به من الثياب اليوم، هل يمكن أن ترسلي لي البذلة الخضراء باللون اللوزي، والفستان الأرجواني والسترة.

– إن الأوامر التي تلقيتها تقضي تزويدك بكسوة كاملة، وأعتقد أنك لا تريدينني أن أوذي مشاعر السيد «كنغدوم». ونظرت «راشيل» إلى «إريكا» ثم إلى وجه الآنسة «كلاي» المتخشب، ثم عاودت النظر إلى «إريكا»، لم تكن ثمة فائدة ترجى من تصعيد الموقف معهما، بينما «جويل» هو المسؤول عن كل شيء حدث، ثم إنه إذا كانت علاقته بـ«إريكا» بلغت بالفعل المبلغ الذي كانت «إريكا» توحي به، فمن حقها تماما أن تعبر عن استيائها. ونظرت حولها تبحث عن السروال والسترة الصوفية اللذين حضرت بهما وقالت:

– افعلي ما تعتقدين أنه الأفضل، لكن لو سمحت، فأنا تعبت اليوم. وتبع ذلك صمت عميق استجمعت «إريكا» نفسها خلاله، وقالت:

– سوف أطمئن على أن جميع الملابس المناسبة تم توليفها، هل أرسلها إلى منزل السيد «كنغدوم»؟ وهزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– لا! لي شقتي، سأعطيك عنوانها، والأفضل أن ترسليها لي على هذا العنوان. وردت «إريكا» بأدب وهدوء للمرة الثانية:

– حسنا يا سيدة «غيلمور». وسألت «راشيل» بشيء من الإحباط:

– هل تعرفين أين أجد سروالي وسترتي الصوفية؟ ونظرت «إريكا» حولها، ثم هزت كتفيها، وقالت:

– إنني أقترح أن تلبسي شيئًا أكثر أناقة يناسب المدينة! عندئذ حدّقت «راشيل» ببرود، ثم استدارت بعيدًا، وقالت:

– أشكرك، ولكنني أفضل أن أرتدي ملابسي لأطول فترة ممكنة. وخرجت مع الآنسة «كلاي» بعدما ودعتا «إريكا»، ولم تستطع «راشيل» أن تمنع خاطرًا قاسيًا

خطر لها بأن «جيمس» قصد عن عمد أن يبعث بها إلى ذلك المكان لتعرف إن عاجلاً أو آجلاً العلاقة بين «إريكا» و«جويل». كان يظن أنها ما زالت تحتفظ ببعض المشاعر تجاه «جويل»، إنها تحتفظ حقًا ببعض المشاعر، لكن ليست تلك التي تستحق أن يأرق بسببها. واستقلت الآنسة «كلاي» سيارة أجرة، وأخذت «راشيل» تتسكع في شارع «ريجنت» وتتفرج على الواجهات، وذكرها ذلك بأيام التلمذة، تلك الأيام التي لم تكن قد عرفت فيها «جويل» بعد. لم تتمتع «راشيل» بطفولة سعيدة، إذ غدت يتيمة قبل أن تصل إلى السن الذي تستطيع فيه أن تتذكر أبويها، وتربت في أحد بيوت الأطفال حيث يكون إشباع الحاجة إلى المحبة والحنان تاليا لمرحلة الاهتمام بالواجبات العادية للمعيشة. كان لها أصدقاؤها، وكانت هناك فترات استمتعت فيها بالسعادة، ولكنها لم تبدأ تحس بما تشعر به الفتيات في سنها، عادة قبل أن تصل إلى السن الذي استطاعت فيه أن تعتمد على نفسها، ولما أعطيت لها منحة دراسية، استطاعت أن تجد غرفة في أحد الأقسام الداخلية، وانتظمت في كلية «ماكسويل للتصميمات الفنية والحرف» وعُرفت باستمرار بتذوقها للألوان، وأمضت حوالي تسعة شهور في الكلية عندما جاء «جويل كنغدوم» لإلقاء محاضرات على طلابها. وجذبت «راشيل» اهتمامه منذ اللحظة الأولى، في البداية رفضت أن تكون لها به أية صلة خارج الكلية، وصممت على ذلك رغم أن الطالبات الأخريات كن يعتبرن ذلك جنونًا منها، لكن ذات مساء وقف خارج الكلية ينتظرها وكان المطر ينهمر بشدة، ولم تجد بدًا من أن توافق على أن يوصلها بسيارته إلى بيتها، ومنذ ذلك الحين صار ينتظرها كل مساء، وسمحت له أحيانًا أن يصطحبها لتناول العشاء، وأدركت الآن أنها كانت على خطإ عندما ظنت أن بإمكانها أن تلهو مع رجل مثل «جويل» دون أن تحترق أصابعها، لكن كل شيء كان يبدو غاية في البساطة إذ ذاك. كان «جويل» يبدو جذابًا للغاية، ووقعت في حبه قبل أن يمضي وقت طويل دون أن تدري ذلك، وقال لها «جويل» أيضا إنه يحبها، ورغم أنها كانت تعرف عندئذ أنه ليست له نية الزواج، ظنت أنه عندما يقع ذلك الحادث السعيد ستسوف تغدو زوجته، وبدأت تدرك الآن أنها ساذجة وغبية إلى حدٍّ بعيد، لم

يكن الزواج أحد مشروعات «جويل» في يوم من الأيام، وكان ينبغي أن تأخذ حذرها عندما عرفت آراءه حول الأطفال، تكلم كثيرًا في تلك الأيام عن أناس يعرفهم، ويرى أن الأطفال جلبوا المذلة لحياتهم، وكان يأسف للأزواج الذين يضحون بشبابهم من أجل تربية أبنائهم الذين لا يلبثون أن يكبروا ويهجروا الآباء ليعيشوا حياة خاصة بهم، وكانت «راشيل» تتظاهر بالموافقة بينما هي في قرارة نفسها تعلل تلك القسوة منه بحرمانه من حنو الأمومة في طفولته، فقد ماتت أمه وعمره بضعة أشهر، وكانت تعتقد أنه إذا ما تم الزواج بينهما فسوف يسعى لإنجاب الأطفال مثلها تماما. وصارت تمضي وقتًا طويلاً في مسكنه، وتعرفت إلى خادمه «هيرون»، وبدأت تعتاد المكان. كان «جويل» يعاني حالة صداع نصفي مستمر يعاوده في رأسه، ولم تكن النوبات تحدث على فترات متقاربة، وفي إحدى الأمسيات التي كان «هيرون» قد استأذن فيها بالانصراف، حضرت «راشيل» إلى المسكن، ووجدت «جويل» شاحبًا يتصبب عرقًا، ومع ذلك كان مستغرقًا في إكمال لوحة لأحد المعارض التي ستقام خلال يومين. وأقنعته «راشيل» بأن إصراره على العمل، وهو في تلك الحال، يعتبر خبلاً، وأنه لا يمكن أن يأتي إنتاجه بالدرجة المطلوبة وعليه أن يذهب إلى الفراش ليسترخي ويستريح. واقتنع في النهاية بأن يفعل ذلك شريطة أن تبقى معه، تبقى في مسكنه ولا تعود إلى بيتها قبل أن يفيق ليوصلها، وتوجست «راشيل» أول الأمر، ولكنها وافقت بعد أن وجدته في حالة من الخوار لم تكن تتوقعها، وتركته ليستريح وبقيت هي في غرفة الجلوس. ولم تكن لتغفر له أو لنفسها قط ما حدث إذ كان شيئًا ليس في الإمكان تجنبه، وفي اليوم التالي اكتشفت بالضبط كم كان ذلك الذي حدث شيئًا مهمًا لـ«جويل»، وعوضًا عن أن يعتذر عما حدث، بدا أنه يعتبره مرحلة من مراحل التطور الطبيعي للعلاقة بينهما، ولم يحاول أن يشير إلى موضوع الزواج كعلاج لما بدر منه، وشعرت «راشيل» بأنها تحطمت، وتجنبته لأكثر من أسبوع عانت خلاله عددًا من الاتصالات الهاتفية كانت في أول الأمر تتخذ صيغة الإلحاح، ولكنها تطورت إلى سباب غاضب بسبب مراوغتها له، وأخيرًا وافقت أن تقابله وتواجهه بحقيقة مشاعرها، كانت مقابلة رهيبة بدأها «جويل» بالتوسل

إليها، وأنهاها بأنه لم يكن بعد مستعدا لأن يضحي بحريته من أجل آداب المجتمع وتقاليده، وطلب إليها أن تكون متعقلة وراشدة وناضجة، وأن تساير الأفكار الجديدة التي تدمغ العذراوات بالرجعية والتخلف، كان كل ما فعله أن أعطاها درسًا في التحضر! وتبادلا ألفاظًا قاسية ومؤذية شعرت «راشيل» بعدها بالأسف المرير لذلك، ولكنه قضى على ما بقي لديها من مشاعر تكنها نحوه. عند ذاك وبعد ثلاثة أسابيع مضت، اكتشفت أنه كان عليها أن تدفع ثمنًا آخر تكفر به عن تلك الليلة الطائشة، كانت حاملاً، وبلا مال ومع ذلك صممت على ألا تطلب من «جويل» أية مساعدة. وأفاقت «راشيل» من تلك الأفكار واستجمعت قواها، وابتعدت عن المكان، وجاءتها الخواطر حول «سارة» وأين ذهبت مع «جويل»؟ تُرى هل تتعلق «سارة» به؟ وماذا يقول «جيمس كنغدوم» في ذلك؟ كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بقليل عندما وصلت «راشيل» إلى مسكنها، ولم يكن هناك أثر للسيارة التي كان «جويل» يقودها يوم حضر إلى «لانغثويت»، ودخلت الشقة، وخلعت سترتها، وذهبت لتعد لنفسها بعض القهوة لتشغل الوقت، عندما قرع الجرس. وذهبت لتفتح الباب، وهي تحاول أن تهدئ من روعها. ودخلت «سارة» إلى الشقة بشيء من الجلبة، وهي تمسك بدميتها «هيلغا» في إحدى يديها، بينما تلوح في يدها الأخرى بإحدى أوراق الرسم. كانت عينا «راشيل» تتركزان في الطفلة ولم تبرحاها إلا لحظة وقعتا رغمًا عن إرادتها على الرجل ذي العينين الضيقتين الذي كان يقف بسخرية في المدخل ينظر إليها بشيء من الإصرار الغامض، وعلق وهو يستند إلى دعامة الباب قائلا:

– ها هي «سارة» سالمة آمنة كما ترين، هلا دعوتني للدخول؟ كان من العسير عليها أن تركز انتباهها؛ إذ كانت «سارة» تشد يدها بقوة تريد أن تريها ما أحضرته معها، وقالت في شيء من التعثر:

– هل هناك ما يحملني على أن أدعوك للدخول؟

– لا! لكن هل هناك ما يحملك على ألاّ تدعوني؟ قالها «جويل» بحدة، ودلف إلى غرفة الجلوس. واضطرت «راشيل» أن توجه كل انتباهها إلى الطفلة عندئذ، وأخذت الرسم الذي كانت «سارة» تقدمه إليها، وأحست بأن قلبها ينبض باضطراب وهي

تنظر إلى الصورة التي رسمها «جويل»، كانت موهبته في الرسم فوق الشك، وكانت «راشيل» قد أبدت إعجابها بعمله، وبسهولة اندماجه في ألوانه، ولكن صورة «سارة» كانت تختلف بطريقة ما، وحاولت أن تقنع نفسها أن ذلك الشعور ناشئ عن حساسية خاصة لأن الصورة تمسها عن كثب، ولأنها تعرف نقطة الضعف في نسب «سارة» مما زاد من حدة الموضوع، ولكن المشكلة كانت أكبر من ذلك، ولو أتيح لها أن تعرف الأمر بطريقة أفضل لعرفت أن هناك مشاعر حقيقية وراء كل خط من خطوط الصورة، ولم يكن باستطاعتها أن تجازف في ماهية تلك المشاعر. وخاطبت «سارة» أمها مُعبّرة عن سعادتها:

– انظري... إنني أبتسم! وضحك «جويل» ضحكة خرجت من أنفه، وقال:

– السبب وراء ذلك هو كمية الآيس كريم الضخمة التي أكلتها. قالها وهو يستلقي على الأريكة دون استئذان. وتركت «سارة» أمها وراحت نحوه وقالت:

– وعلى أية حال، فأنت أيضًا أكلت واحدة.

– لكنها لم تكن كبيرة مثل التي أكلتها أنتِ.

– كان بإمكانك أن تأكل واحدة كبيرة، كان لذيذًا رغم كل شيء. (ثم سألته) هل صحيح أن ذلك الرجل يقوم بطهو جميع طعامك؟ وانتفض رأس «راشيل» إلى أعلى، وألقت بالصورة على منضدة مجاورة، وسألت:

– أي رجل؟ أين كنتِ يا «سارة»؟

– ذهبنا إلى منزل «جويل»... العالي في السماء... وصعدنا في المصعد الذي ذهب...

وقاطعتها «راشيل» وهي في حالة من الروع:

– هل أخذتها إلى مسكنك؟ ونظر «جويل» إليها بعينين قاسيتين، وقال:

– ولمَ لا؟ ألم تذهبي أنتِ إلى هناك مرارًا؟ واتسعت حدقتا «سارة»، وسألت:

– صحيح يا مامي؟ ذهبتِ هناك فعلاً؟ ورأيتِ كل الغرف؟

– نعم! قالتها «راشيل» باختصار ولم تكن تستطيع أن تنكر، وأدركت بوضوح أن «جويل» كان يبين لها كيف يستطيع بسهولة أن يدمرها، ولشد ما كان مقتها له بسبب ذلك. وبدأ يتحدث إلى «سارة»:

– كنت أنا وأمك صديقين منذ سنوات، قبل أن تولدي. وسألته «سارة»:

– هل كنت تعرف أبي؟ كانت «سارة» قد بلغت حدًا من الإثارة، ولكن «راشيل» بدأت تضيق بالموقف، وتدخلت لتضع حدًا لما يدور، وقالت:

– بالطبع لم يكن يعرفه، «سارة»، حان وقت الطعام، قولي وداعًا للسيد «كنغدوم»، واذهبي لتغسلي يديكِ، سأعد لكِ بعض الحساء، وسيكون جاهزًا خلال خمس دقائق. وبدا على «سارة» أنها أصيبت بشيء من الإحباط، واتجهت نحو الباب، وقالت وهي تستند إلى المقبض:

– وداعًا يا «جويل». وابتسم «جويل»، وقال:

– إلى الملتقى يا «سارة». وانصرفت «سارة»، ونظرت «راشيل» إليه ببرود، وقالت على مضض:

– أعتقد أن من واجبي أن أشكرك على عنايتك بـ«سارة». ونهض «جويل» على قدميه، وقال:

– إذا كنتِ لا تريدين ذلك فلا داعي، استمتعت بصحبتها، إنها طفلة ذكية، ولقد وجدت صحبتها مبعثًا للإثارة. وصمت برهة وقال:

– أريد أن أراها ثانية. وخرجت من بين شفتيها.. دون أن تفكر جيدًا فيما تقول عبارة:

– لن تستطيع. وعندما رأت صرامة ملامحه، حاولت أن تجد الأسباب لتقنعه، فأضافت:

– أرجوك يا «جويل» أن تحكم عقلك! لا داعي لجعل الأمور تسير إلى الأسوأ. وسأل بقسوة:

– أليس من حقي أن أطلب معرفة ابنتي؟ كان القميص الحريري الثقيل الذي يلبسه منفرجًا يكشف عن حنجرته، وكان يلبس سترة فاتحة اللون من قماش قطني متين وسروالاً أزرق مضلعًا. وكان يقف ملاصقًا لها بحيث بدأت تتنسم رائحته، وأضاف:

– ألا تعتقدين أنكِ مدينة لي بالقليل من وقتها؟ وأجابت على الفور:

– أنا لا أدين لك بشيء، إنك تأخذ ما تريد.. إنك لا تنتظر حتى تطلب. وكان لابد لها من السقوط في ذلك العناق المؤثر الذي اكتسحها كالسيل.

– مامي؟ كانت هذه الصيحة الرقيقة التي انبعثت من «سارة» تعبيرًا عن الاندهاش، هي التي أعادت «راشيل» إلى صوابها، وجذبت نفسها بعيدًا عن «جويل»، واتجهت نحو الطفلة، وهي تصلح من شعرها بأصابع مرتعشة، وتشد السترة الصوفية على أسفل ظهرها، وقالت بشيء من الارتجاف:

– إذن أنتِ هنا يا عزيزتي... ه... هل غسلتِ يديك؟ وزمت «سارة» شفتيها، وحدقت بعبوس إلى حيث كان يقف «جويل» خلف أمها، يصلح من شعره بيديه. وسار «جويل» نحو الباب قائلا بهدوء:

– سوف أراك قريبًا يا «سارة»، وداعًا يا «راشيل». ولم تحر «راشيل» جوابًا، إذ لم تكن تثق بقدرتها على الكلام، وكان كل ما تشعر به عندئذ أنها تود لو انقضت عليه. بدا لها كما كان يبدو دائمًا، الطباع نفسها والسلوك نفسه، بكل أسف. وانغلق الباب خلفه، وحولت «سارة» انتباهها إلى أمها، وقالت بحدة ذهنها المعهودة:

– لا أعتقد أن ذلك الرجل، والد «جويل» يحب أن يراك هكذا مع «جويل» وحتى أنا لا أحب أن أراكِ تفعلين ذلك، إنك أمي أنا، ولست أمه هو. واحتضنت «راشيل» طفلتها بين ذراعيها، وعانقتها بقوة، وتمنت يائسة لو كان الأمر بتلك البساطة. تمنت لو أن الصراع الذي كان عليها أن تواجهه كان مجرد صراع غيرة طفلة على أمها.

– 6 –

كان المساء التالي موعد دخول «سارة» المستشفى للعلاج، وكان المقرر أن تمضي ليلة واحدة كالعادة، لكن «راشيل» قررت ألا تتصل بالسيدة «تالبوت» على الرغم من وصية «جيمس»، وبغض النظر عن أي شيء آخر فهي لم تكن تعرف تلك المرأة جيدًا، فضلاً على أنها لم تكن مهيأة للتعامل مع غرباء في مثل تلك الظروف. وخلال

فترة الصباح وصل رسول من «الصالون الرمادي» محملاً بصناديق الثياب والأحذية والملابس الداخلية التي ارتأت «إريكا غراي» أنها لازمة لكسوة المرأة التي ستغدو زوجة «جيمس كنغدوم». وأتاح ذلك لـ«سارة» على الأقل وقتًا مبهجًا تفتح فيه الرزم وتخرج الفساتين وتدور بها في غرفة نوم «راشيل» وقد جعلت الواحد منها تلو الآخر يتدلى أمامها موازيًا لقامتها. وكانت فكرة أن يشتري لها رجل، أي رجل، ملابسها شيئًا بغيضًا بالنسبة إليها، لكن «راشيل» لم تكن قادرة على إخفاء إعجابها بكل تلك الملابس، وبدلت سروالها وسترتها بقطعتين من القطيفة القطنية المضلعة بلون أخضر فريد وبلوزة لها لون أرجواني مفرح. كان التحول إلى هذا الزي الجديد شيئًا يبعث على الرضا، وعجبت بطريقة ساخرة لما يمكن أن تصنعه الثياب في مظهر الإنسان، قد بدت بالفعل أصغر سنًا بكثير بل بدت كذلك أقل نحافة. وقررت أن تخرج مع «سارة» لمشاهدة معالم المدينة في فترة ما بعد الظهر. ولم تكن «سارة» قد شاهدت بعد مبنى «البرلمان» أو قصر «بكنغهام» بل تاقت نفسها إلى أن تسير في حديقة «سانت جيمس بارك» وتطعم طيور البط التي تسير في البحيرة، وتستمتع بشمس الربيع التي تومض من خلال الأشجار، وتحدثت «راشيل» إلى «سارة» عن حياتها في «لندن» عندما كانت طالبة، وعبرت «سارة» عن أمنيتها في أن تصير طالبة في يوم من الأيام. وعندما رجعا إلى الشقة كانت السيدة «تالبوت» مديرة منزل السيد «جيمس كنغدوم» هناك، ولم تكن قد ضيعت وقتها سدى في أثناء غيابهما؛ إذ كان الأثاث نظيفًا لامعًا وأواني الطعام الذي تناولاه ظهرًا وضعت نظيفة في مكانها الأصلي، وأحست «راشيل» بشيء من الغضب والإحباط عندما اتضح لها أن «جيمس» قد أعطى تلك المرأة مفتاحًا لشقتها، وأدركت أنه كان يسخر منها عندما كان يأتي ليدق جرس مسكنها وينتظر حتى تسمح له بالدخول. وابتسمت السيدة «تالبوت» ابتسامة فيها شيء من الاعتذار وحيتهما بأدب:

– طاب يومك يا سيدة «غيلمور»، أهلا يا «سارة». وأخذت تمسح يديها في الثوب الفضفاض الأزرق الذي كانت تلبسه فوق ملابسها، وقالت:

– أرجو ألا أكون قد تجرأت بعض الشيء يا سيدة «غيلمور»، لكنني انتهيت للتو من

القيام بشيء من ترتيب المنزل. وترددت «راشيل»، ثم قالت بلهجة أكثر حدة:

– كيف دخلت هنا يا سيدة «تالبوت»؟ وهزت مديرة المنزل كتفيها، وقالت:

– ترك لي السيد... مفتاحًا.

– صحيح؟ وأخذت «راشيل» تفك أزرار سترتها الناعمة، وخلعتها، ووضعتها على ظهر كرسي، وأيقنت أن السيدة «تالبوت» لم يكن لها ذنب في الموضوع، ولكن ذلك لم يكن يهون من الواقع. واتجهت إلى «سارة» وبدأت تعاونها على خلع السترة الفرائية، وجاءت السيدة «تالبوت» تقول:

– هل أعد لكِ فنجانًا من الشاي؟ ونصبت «راشيل» قامتها، ثم تنهدت بشيء من الاستسلام، وقالت:

– ولمَ لا؟ ونظرت «سارة» باستغراب إلى أمها عندما انصرفت السيدة «تالبوت» لتعد الشاي وقالت:

– لماذا هي هنا؟ واصطنعت «راشيل» ابتسامة، وقالت:

– أوه، جاءت لتساعدني على أعمال المنزل، هيا اغسلي يديك بسرعة، أعتقد أنك تحبين أن تأكلي بسكوتة وشيئًا من الحليب؟ وأومأت «سارة» بالموافقة، وهرولت إلى الحمام بينما استجمعت «راشيل» ما بقي لديها من رباطة جاش، واتجهت إلى حيث كانت السيدة «تالبوت»، تهم بسكب الماء المغلي في براد الشاي، وقالت «راشيل» بهدوء:

– انظري... إنني آسفة إذا كنت قد أبديت بعض الخشونة، ولكنني لم أكن أعلم أن «جيمس» يملك مفتاحًا للشقة. وأكملت السيدة «تالبوت» صب الماء المغلي، وقالت:

– حسنًا، يا سيدة «غيلمور»، فهمت أنك لم تكوني تعرفين بسائر الترتيبات التي وضعها السيد «كنغدوم» ولكنه قال إنه أخبرك بأنني أبيت هنا عندما تكون «سارة» في المستشفى. ونشقت «راشيل» نفسًا عميقًا، وقالت:

– أفهم ذلك، ولكن كيف عرفتِ أن «سارة» ستدخل المستشفى الليلة؟

– تأكد السيد «كنغدوم» من مستشفى «سانت ماثيوز» قبل أن يسافر. وأومأت «راشيل» بالموافقة، وقالت:

– بالطبع... لابد من أن يفعل... أوه... حسنًا... إن علينا أن نحتمل. وبدا على السيدة «تالبوت» أنها أحست بشيء من الارتياح، وقالت:

– إذا أوضحت لي مكان نومي يا سيدة «غيلمور»، فسأذهب إلى غرفتي وأتركك في سلام. وهزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– أوه، لا تكوني بلهاء، لابد من أن نتناول الطعام معًا، وأعتقد أنك تفضلين مشاهدة التليفزيون على أن تقيمي في غرفتك طوال الليل. وابتسمت السيدة «تالبوت» عندئذ وقالت:

– لا مانع لدي من ذلك... لكن لا تشغلي نفسك بي... فإذا أردتِ الخروج أو زيارة الأصدقاء. واستدارت «راشيل» حتى لا ترى المرأة الأكبر منها وجهها، وقالت:

– ليس لي أصدقاء في «لندن» يا سيدة «تالبوت». ودق جرس الهاتف بينما كانت «راشيل» تساعد «سارة»، وهي تضع بعض مقتنياتها في حقيبة السفر المصنوعة من القماش، وكانت «تالبوت» في غرفة الجلوس، ولذلك أجابته وجاءت إلى باب غرفة نوم «سارة» بشيء من الدهشة، وقالت في أدب:

– إنه السيد «جويل كنغدوم» يا سيدة «غيلمور»، هل تردين على المكالمة؟ واحمر وجه «راشيل». كانت عندما سمعت الجرس يدق تظن أن المتكلم إما أن يكون «جيمس» أو سكرتيرته، لكن ماذا كان يريد «جويل»؟ هل اكتشف بطريقة ما أن «سارة» ستمضي الليلة في المستشفى؟ أم أنه اكتشف السبب الحقيقي لزواجها من «جيمس»؟ كان من الصعب عليها أن تنهض على قدميها وتسلك كما لو أن شيئًا عاديًا أن يطلبها ابن زوجها بالهاتف. وسارت «راشيل» مسرعة إلى الجلوس تاركة السيدة «تالبوت» مع «سارة»، ورفعت السماعة، وقالت:

– نعم؟ وكان صوتها ينم عن اضطرابها، ورد «جويل»:

– آسف! لم أكن أعرف أن معكِ كلبًا للحراسة. وتجاهلت «راشيل» لهجته الساخرة، وقالت:

– ماذا تريد يا «جويل»؟

– أريد أن أتحدث معكِ يا «راشيل»! كنت سأقترح أن أحضر إليكِ بعد أن تنام

«سارة»، لكن يبدو أن ذلك مستحيل الآن (وصمت برهة) ومع ذلك فبما أن لديك من يقوم برعاية الطفلة بصفة مستمرة، فإنني أقترح أن نتناول طعام العشاء سويًا.

– لا... أشكرك يا «جويل»! وطقطق بلسانه وقال:

– ولكنك لا تستطيعين أن ترفضي اقتراحي هكذا يا «راشيل»، فلابد من أن نتحدث، وإذا أردتِ أن أحضر إليك.. وأجابته بيأس:

– أنت تعرف أنه لا يمكنك هذا.

– حسنًا!... معقول... وإذن ماذا تقترحين؟

– لا أستطيع أن أقترح شيئًا. ونظرت في ضيق خلفها، وأكملت:

– هل يمكنك أن تطلبني غدًا يا «جويل»!

– لماذا، هل سيكون كلب الحراسة قد انصرف عندئذ؟

– سوف تتركنا السيدة «تاليوت» صباح الغد.

– ألا يكون هذا إضاعة لإحدى الفرص؟

– لا أستطيع أن أراك الليلة.

– إذا كنتِ تصممين (وسكت لحظة)، إذن فإنني أدعوكما أنتما الاثنين غدًا على وجبة الظهيرة.

– لا أعرف يا «جويل»!

– عند الحادية عشرة والنصف يا «راشيل». قالها بشيء من التصلب.

– سوف أطلبك على الهاتف. ووضع السماعة، وأعادت «راشيل» السماعة إلى موضعها، ووقفت تحدّق إلى الهاتف ثوان، ثم قفلت راجعة إلى غرفة نوم «سارة»، وهي تتنهد. كان شيئًا شديد الإيلام لـ«راشيل» دائما أن تترك «سارة» في المستشفى وعلى الأخص في هذه المرة، إذ كانت كل المرضات غريبات عليها، وكانت «سارة» تبدو ضعيفة ضئيلة في سرير المستشفى العالي الذي كان يعتبر الماكينة التي حفظت لها حياتها طوال الشهور الستة الأخيرة، وكأنه يتغذى عليها كمصاص ضخم للدماء، ولكن ذلك التشبيه لم يكن عادلاً، فالواقع أن «سارة» هي التي كانت تأخذ دماء حياتها من الآلة. ورجعت «راشيل» بعد ذلك إلى الشقة، تسير ببطء

على قدميها وهي غير راغبة في أن تتواجد مع السيدة «تاليوت»، وتمنت لو كانت تملك سيارة تقودها خارج المدينة بعيدًا عن الشقة التي تجسد بقسوة فكرة ارتباطها بـ«جيمس كنغدوم». كانت تقترب من الشارع الصغير حيث يقع بيتها، ومرت بجوارها سيارة فخمة خضراء قاتمة توقفت فجأة أمامها، واعترتها الدهشة عندما وجدت النافذة القريبة منها تنزل إلى أسفل، ووجدت نفسها تطالع ملامح «إريكا غراي»، ولم تندهش «راشيل» عندما انفتح باب السائق بقوة، وخرج منه رجل، هو «جويل كنغدوم»، ودار حول السيارة متجهًا إليها، كان وجهه متجهمًا ومتصلبًا. وسألها باقتضاب:

– ماذا تفعلين – يا للشيطان– بالتجوال في الشارع في هذا الوقت من الليل؟ كان جذابًا يميل إلى السمرة، يرتدي بذلة عشاء من المخمل الأحمر الداكن. واعترى «راشيل» نوعًا من الانزعاج، وقالت في شيء من الدفاع عن النفس:

– الوقت ليس متأخرًا بعد... ثم إن هذا أمر لا يعنيك. ونظرًا لأن «جويل» كان يدرك أن «إريكا» تستطيع أن تسمع كل كلمة يقولانها اكتفى بزم شفتيه، ولكن عينيه كانتا تتوعدان بالمحاسبة فيما بعد وقال:

– اصعدي إلى السيارة، سنوصلك إلى البيت. وأجابت في شيء من التوتر:

– أشكرك، لم يبق لي سوى أمتار قليلة. وعندما أدركت أن «إريكا» تشعر بشيء من الغضب أكملت:

– كان الجو جميلاً في المساء، وأحسست برغبة في المشي. طبتَ مساء.. طبتِ مساء يا آنسة «غراي». وتقوست أصابع «جويل» حول زندها ليمنعها من التحرك، وقال:

– انتظري! كان قد اقترب أكثر منها، وكان بوسع «راشيل» أن تحس بدقات قلبها في أذنيها، ومست أصابعها قماش سترته الناعم، واخترقت عيناه الجريئتان الثاقبتان عينيها، وقال:

– هل أكلت؟ وحاولت «راشيل» أن تومئ برأسها:

– نعم، بالطبع.وجذبت عينيها بعيدا عن وجهه، وقالت:

www.rewity.com

– هل يمكن أن أنصرف الآن؟ وشدد «جويل» ضغط أصابعه على ذراعها عن عمد، وأخيرًا وبإشارة تنم عن السخرية، تركها تنصرف، ورجع إلى السيارة وقال:

– سوف ننتظر حتى تدخلي المبنى. وأسرعت «راشيل» حول ناصية الطريق، ودخلت المبنى وكانت على وشك أن تبكي بغباء، وحاولت أن تقنع نفسها بأن ذلك نتيجة لقسوته المتعمدة، لكن التعذيب الداخلي الذي تشعر به كان شيئًا أكبر بكثير من الألم الجسدي، وحدثت نفسها بمرارة: كان يعتقد أن بإمكانه أن يخرج من الموقف بأي شيء، وكان على الأغلب يحصل على ذلك الشيء. وحاولت أن تنشق أنفاسًا مهدئة، ثم بدأت تصعد الدرج إلى شقتها. وكان من الخير أن عادت إلى شقتها في ذلك الوقت، فقد دق جرس الهاتف بعد أن دخلت الشقة بدقائق قليلة، وكان المتحدث هذه المرة هو «جيمس كنغدوم» وقال:

– تصورت أنك لن تتغيبي كثيرًا. هل استراحت «سارة» في المستشفى؟

– نعم! للغاية، كيف حالك؟

– أوه! إنني بخير، ومشغول جدًا بالطبع، هل حضرت إليك السيدة «تالبوت»؟ وكانت السيدة «تالبوت» تشاهد البرنامج التليفزيوني في الركن الآخر من الغرفة، وقالت:

– نعم... هي هنا.

– حسنا، فأنا لا أحب أن أفكر أنك وحيدة في الشقة. وعلقت «راشيل» بجفاف:

– «سارة» لا تصلح حارسًا؟! ولكن من وجهة نظر «جيمس» ربما كانت «سارة» بالفعل حارسًا في بعض الأوقات، والأمر يتوقف على ما يريد المرء أن يحرسه، وأجاب:

– أعرف، ولكنني ظننت أنك تقلقين عليها أكثر إذا كنت وحيدة. وسألته وكأنها تريد أن تغير الموضوع:

– متى تعود؟ وصمت «جيمس» لحظة، ثم أجاب:

– يوم الخميس المقبل على ما أعتقد، لماذا؟ هل اشتقت إليّ؟ ونظرت «راشيل» مرة أخرى تجاه السيدة «تالبوت»، وبدا صوتها قاسيًا شيئًا ما، وهي تقول:

– بالطبع. وأراد أن يستثيرها فقال:

– لا تتظاهري بأنك متحمسة لهذه الدرجة بهذا الخصوص، هل السيدة «تالبوت» معك؟ واصطنعت «راشيل» شيئًا من الاسترخاء، وقالت:

– نعم، إننا نرقب البرنامج التليفزيوني. وعلق بشيء من التردد:

– أفهم، هل رأيتِ «جويل»؟ وفقدت شعورها بالاسترخاء، وتصلبت أصابعها حول السماعة، وفكرت في شيء من الغيظ: لابد من أنه تحدث بالطبع مع سكرتيرته خلال اليومين الماضيين، وأجابت في حرص:

– نعم! رأيته.

– متى؟

– ألا تعلم؟ لقد جاء إلى «الصالون الرمادي» ليزور السيدة «غراي» بينما كنا هناك..

– صحيح؟! ماذا كان يريد؟ وعضّت «راشيل» على شفتها السفلى بشيء من الألم، وقالت:

– قلت لك إنه حضر لزيارة الآنسة «غراي». وساد صمت ثم قال «جيمس»:

– آمل ألا تخبري «جويل» بشيء عن مرض «سارة».

– ولماذا أخبره؟

– فعلاً، لماذا؟ إنك تعلمين بالعلاقة بينه وبين «إريكا غراي» الآن! أليس كذلك؟ ولعقت «راشيل» شفتيها، وقالت:

– لا أعتقد أن هذه المسائل تعنيني. وأبدى الموافقة قائلا:

– لا، ربما لا! أعتقد أنك تعرفين تماما طبيعة ابني، وتعرفين ما يريده من أية امرأة.

– لا داعي لأن تشرح لي يا «جيمس»، أنا لست بلهاء تمامًا.

– لا يا عزيزتي، غير أنني أشعر أنه من واجبي أن أحميك (وسكت لحظة) والآن ولأسباب أخرى أكثر أهمية، قررت أن من الخير أن نعلن خطوبتنا الرسمية قبل، قبل عملية «سارة». وصدمت «راشيل» للنبأ، وقالت:

– قبل؟ وأجاب «جيمس» بما ينم عن إعمال الفكر:

– نعم، وعلى أية حال فإنك كخطيبة لـ«جيمس كنغدوم» سوف تحصلين على ميزات معينة، بل إن الأمر يبدو لي أنه الترتيب الأكثر ملاءمة من زوايا متعددة، فنحن لا نريد أن يظل هذا الأمر سرًّا يا«راشيل»، وهناك بعض الإجراءات الرسمية ينبغي أن أقوم بها، وفكرت أن نعقد اجتماعًا بسيطًا في أي مكان وليكن فندقًا مثلا، ونعلن الخطوبة رسميًّا بعد حفل عشاء، ما رأيك؟

– لا أعرف فيما أفكر. وكان في ذلك على الأقل شيء كبير من الحقيقة. ثم أضاف:

– كلما تم تقبل «جويل» و«فرنسيس» لفكرة إتمام هذا الزواج في وقت مبكر كنت أكثر ارتياحًا لذلك، وعندما تصل «سارة» إلى الحالة التي تستطيع فيها أن تحتمل السفر، نقيم حفل زواج هادئًا قبل أن نسافر إلى «لياكوس». وكان قد مضى على «راشيل»فترة طويلة ظلت فيها صامتة، لدرجة أنه قال:

– «راشيل»؟ وكان عليها أن تجد شيئًا ترد به بسرعة، وقالت ببطء:

– إذا كان هذا هو ما تريد؟ وسألها بحدة:

– أليس هو ما تريدينه أنتِ أيضًا؟ وأسرعت تطمئنه:

– إنني فقط أفكر في مقابلة كل أصدقائك ومعارفك، تُرى ماذا سيكون رأيهم في؟ واختفت نغمة القلق القصيرة من صوته، وقال:

– يا عزيزتي... سيصاب الجميع بالدوار من الحسد، هل وصلتك بعض الملابس من صالون «إريكا»؟ وهدأت «راشيل» من صوتها، وقالت:

– ملابسي؟ لم يكن لدي أدنى فكرة أن امرأة واحدة يمكن أن تمتلك كل تلك الملابس. وظهر أنه قد سُرَّ بذلك، وقال:

– وسوف أراكِ تلبسينها، هل تقابلينني في المطار عند عودتي؟

– إذا كنت تحب أن أفعل ذلك.

– بالتأكيد. وتنهد بشيء من الأسف وقال:

– والآن عليَّ أن أنصرف.. إنني أتكلم من بيت السيد «هارتز» وهو أحد المندوبين

في المؤتمر الذي أحضره، ولست على ثقة بأنه سوف يرحب بهذه المكالمة على قائمة الحساب.. بلغي «سارة» حبي عندما ترينها في الغد، وأخبريها أنني سأحضر لها هدية خاصة. كانت «راشيل» تتمنى لو كان شعورها بالعرفان أكثر عمقًا وهي تضع السماعة، وعلى الرغم من كل شيء، فإن نساء كثيرات يمكن أن يحسدنها على فرصة الزواج بأحد كبار الأثرياء في «لندن». ولماذا إذًا كانت تشعر باستمرار بأنها أشبه بالفأر الصغير الذي وقع بين مخالب قط؟ وخطر لها أن ما يطلبه منها يعتبر شيئًا تافهًا إذا ما كان يعنيه بالنسبة إلى «سارة» هو الفارق بين الحياة والموت.

وانصرفت «تالبوت» صباح اليوم التالي بعد التاسعة بقليل، وشعرت «راشيل» بالارتياح لذلك، إذ كانت تخشى حرج الوقوع في البحث عن عذر لقدوم «جويل» إلى الشقة، وقررت أنه عندما يصل «جويل» فسوف تصارحه بكل شيء حدث، كل شيء. وذهبت إلى المستشفى لتحضر «سارة»، التي سألتها وهما يسيران في طريق العودة إلى الشقة تحت شمس غائمة:

– ماذا سنفعل يا أمي؟ أعتقد أن اليوم سيكون يومًا جميلاً، هل نمضي بعض الوقت في استطلاع المعالم السياحية مرة أخرى؟ وتنهدت «راشيل»، وقالت في شيء من التردد:

– الحقيقة أن السيد «كنغدوم» سوف يحضر لاصطحابنا إلى الغداء، وشعرت بشيء من وخز الضمير عندما نطقت «سارة»:

– «جويل»؟ هو؟ بحق هو؟ أين يصطحبنا؟ هل تظنين أنه ربما يأخذنا إلى شاطئ البحر؟ وقالت «راشيل» بوهن:

– لا أعتقد ذلك، فالجو شديد البرودة.

– إنه ليس باردًا على الإطلاق. وأجابت «راشيل»:

– حسنًا، ولكنه لا يسمح بالذهاب إلى شاطئ البحر. وشعرت بالضعف عندما رأت وجه «سارة» يعكس القنوط مرة أخرى، وقالت:

– لننتظر ونر، احكي لي عن المستشفى، هل كان كل شخص هناك رقيقًا معكِ؟ وأدركها «جويل» بعد الحادية عشرة بقليل، حين كانت «راشيل» تشارك «سارة»

في احتساء كوب الحليب الذي تعودتاه في فترة الصباح، وكانت للتوّ قد خلعت الدبابيس من شعرها وعلى وشك أن تمشطه عندما دق جرس الباب، وذهبت «سارة» لترى من الطارق بينما شغلت «راشيل» بتثبيت شعرها، ولكن يديها كانتا ترتعشان بسبب العجلة. كان «جويل» يلبس في ذلك الصباح بذلة زرقاء من قماش قطني متين لها سترة قصيرة فوق قميص باللون الأزرق الفاتح دون ياقة، وومضت عيناه على سروالها الأخضر وقميصها القرمزي، ثم ضاقتا عندما استقرتا على شعرها بجماله الحسي الغامض، وقال بصوت أجش:

– لا تلفيه إلى أعلى هكذا، اتركيه طليقًا. ولكن «راشيل» استدارت بعيدًا، وقالت:

– إنه طويل بدرجة لا تسمح أن أتركه طليقا. وواصلت تثبيته في التسريحة المعقودة على مؤخرة عنقها. وقالت «سارة» في صوت صغير:

– ماما قالت إنك ستصطحبنا إلى الغداء. وبعد أن تردد لحظة التفت «جويل» إلى الطفلة، وانحنى عليها، ورفعها إلى أعلى بين ذراعيه وهو يبتسم في عينيها وقال:

– نعم سأفعل. قالها وهو يبدي علامة الموافقة، وأضاف:

– يا لله! إنك كتلة ثقيلة! كم وزنك؟ نصف طن؟ وضحكت ضحكة خفيفة فيها شيء من السذاجة، وقالت:

– لا! إن وزني عشرة كيلو جرامات فقط، أعرف ذلك لأن الطبيب «لوريمر» قال ذلك.

– الطبيب «لوريمر»! – قالها «جويل» بغضب – ومن يكون الطبيب «لوريمر»؟ ونظرت «راشيل» إليه بنظرة توسل، وقالت:

– «جويل»!

– هل قلت شيئًا خاطئًا؟

– لا داعي لأن تسأل الطفلة.

– ولكن الإنسان يسأل الطفلة إذا لم يجد الإجابات في أماكن أخرى.

– سأجيب عن أسئلتك.

– صحيح... ستفعلين؟ والتوت شفتا «جويل» وقال:

– وماذا عن... لماذا تتزوجين أبي؟ إذن... وتغضن فم «سارة»، وقالت:

– أوه! لماذا تتجادلان ثانية؟ إنكما دائمًا تتجادلان! قلتما إنكما أصدقاء. وتنهد «جويل»، وتخلصت ملامحه من التوتر:

– نحن أصدقاء. وطمأنها برفق وأضاف:

– والآن... هل أنت مستعدة؟ كانت «سارة» قد ذهبت إلى الحمام وأكملت «راشيل» تثبيت شعرها، ولبست السترة الجلدية القصيرة التي كانت أحضرتها مع السروال، وكانت تتجنب عيني «جويل»، ولكن صوته كان آسرًا، وهو يقول:

– إنني مصمم على أن أكتشف، بالوسائل المشروعة وبغير المشروعة! ورفعت «راشيل» عينيها إليه، وقالت:

– وهذه الأخيرة تعرف منها الكثير، الوسائل غير المشروعة! وحرك «جويل» رأسه ببطء من جانب إلى آخر، وقد سيطر عليه شعور بالحيرة، وقال:

– إنك تستمتعين بسوق مثل هذه الاتهامات إلي، ما الذي تستفيدينه من ذلك؟ هل تشعرين بالارتياح عندما توبخينني؛ لأنك تعرفين تماما أنك في مأمن كامل... طالما «سارة» معنا؟ وحاولت «راشيل» أن تهز كتفيها بشيء من اللامبالاة، وقالت:

– إنني أقول فقط ما أحس به.

– ولا تقيمين وزنًا للنتائج؟ وسألته بقسوة:

– هل تنكر أنك تستحق الاتهامات التي أوجهها إليك؟

– ليس كثيرًا.

– إنك تعتقد أنني ذكية للغاية؟ ورد عليها في رفق:

– لنقل إنني لا أظن أنكِ أنتِ ذكية للغاية.

– أعتقد أنك لست في وضع يسمح بإصدار مثل هذا الحكم.

– ربما لا، لكن توجد نقاط أخرى عديدة حول هذا الموضوع ما زالت لا توصل إلى النتائج، ولكنها ستوصل إلى النتائج بمرور الوقت.

– لا ينبغي لي أن أعتمد على ذلك..

– ولكنني أفعل هذا، إنني أعتمد على ذلك كثيرًا جدًا. (ولم تكن الابتسامة التي

ترتسم على وجهه تدل على الابتهاج وأضاف):

– وسوف تقومين أنتِ بتقديم الإجابة لي، أليس كذلك؟ وكورت «راشيل» قبضتي يديها، وقالت:

– لمَ لا تسأل أباك لماذا يتزوجني؟

– هل تعتقدين أنني لم أسأله؟ وسألت بارتعاش:

– وماذا قال؟

– ولماذا أخبرك بذلك؟ إنني أريد أن أعرف القصة من وجهة نظرك أنتِ. وقالت «راشيل» وهي تعبث بأزرار معطفها:

– لا أعتقد أنه أخبرك بشيء، ولو أنه فعل لما كان لك هذا الاهتمام بالسؤال عن دوافعي. وحنى «جويل» رأسه، وقال:

– حسنا، إنني أسلم لك بهذه النقطة، لكن من الواضح على الأقل بالنسبة إلى شخص له أخلاق كأخلاقي، أن الحب لا دخل له في هذا الموضوع.

– إنك لا تعرف ذلك.

– أنا لا أعرف ذلك؟ إذن لماذا لم تقولي لي هذا الكلام منذ البداية. وتقوست شفتاه بشيء من الاحتقار وأضاف:

– أوه يا «راشيل»، إنك لا تحبين أبي، ربما تحبين نقوده، ولكنك لا تحبين أبي... وصفعته على وجهه صفعة شديدة قبل أن يكمل الكلام، ولكنه لم يحاول أن يمنعها، واكتفى بأن ابتسم، ثم حول حدقتي عينيه إلى نقطة أخرى وراءها، وقال:

– هل أنت مستعدة يا «سارة»؟

– حسنا... فلنذهب إذن! لم تكن «راشيل» لتتذكر كيف جمعت حقيبتها، وسترة «سارة»، وتبعتهما بعد ذلك، كانت تبدو وكأنها مخدرة بدرجة كبيرة، وكان النهار لا يزال ممتدًا مفعمًا بالبرودة، وكانت «سارة» تجلس في المقعد الخلفي، وكان عليها أن تجلس إلى جانب «جويل» في مقدمة السيارة، ولم يكن أمامها خيار!

* * * * *

- 7 -

كانت «راشيل» تجلس في قاعة الانتظار تنتظر بشيء من القلق عودة «سارة» و«جويل»، وقد مضى على رحيلهما لزيارة مبنى الملاهي أكثر من نصف ساعة، وبدأت تشعر بالضجر وهي تحاول أن تتجنب النظرات الجريئة من شابين يجلسان في جانب القاعة، لكن عندما اقترحت «سارة» في أول الأمر أن تجرب لعبة الكرة والدبابيس، كانت «راشيل» راغبة في أن تبقى حيث هي، وبذلك تجد وقتًا تستعيد فيه رباطة جأشها، وكان طريق الشاطئ الذي يقع خلف نوافذ الفندق يبدو مهجورًا، والضباب يتعرج على شكل حلزوني حول أشجار الزينة وحول الشجيرات في حديقة الفندق، مما جعل الجميع يهرعون إلى الداخل. وعندما استفسرت «سارة» إذا كان بالإمكان أن يذهبوا إلى شاطئ البحر، استغل «جويل» فرصة صخبها بالابتهاج بتلك المناسبة ليسأل «راشيل» إذا كان لديها أي اعتراض. ولكن «راشيل» أجابت: أن لا فرق، وأن كل الأماكن سواء. وبعدئذ لم يبذل أية محاولة ليشدها إلى الحديث الدائر بينه وبين «سارة»، وكانت «راشيل» تعجب حقًا من الطريقة التي تتأثر بها «سارة» مع «جويل»، فقد كانت تضحك وتتبادل الفكاهات معه وتسأله أسئلة لا تجرؤ «راشيل» ذاتها أن تسألها، وجعلها ذلك تفكر بإمعان فيما إذا كانت علاقة الدم هي التي جعلت ذلك ممكنًا. اتجهت السيارة بهم صوب الجنوب، واعتقدت «راشيل» أنه يقصد «برايتون»، وكان الصباح صباح ربيع مشرق في «لندن»، ولو كان وقتا آخر لتطلعت إلى مشية رشيقة على الشاطئ بعدما تناولت وجبة الظهيرة، لكن نظرًا للظروف المحيطة فإن الفرص لم تكن مشجعة، وزاد من اكتئابها أن «برايتون» تبدو غارقة في نوع من اضطراب البحر والرطوبة، جعلت النزهة على الشاطئ شيئًا مستحيلاً. وصلوا قبيل الواحدة ظهرًا بقليل، ولكي يبعد «جويل» عن «سارة» الشعور بالإحباط وعدها بأن يأخذها إلى مبنى الملاهي بعد وجبة الغداء. وأبدى الجميع إعجابهم بالطعام، حتى «راشيل» رغم أنها لم تستطع أن تأكل شيئًا، وكان «جويل»

يركز في «سارة» التي أكلت وجبة شهية وكانت سعادتها واضحة. وشربوا القهوة في قاعة الانتظار، وهنا بدأت «سارة» تلح في زيارة مبنى الملاهي، ووجدت «راشيل» العذر لعدم الذهاب معهما، أما «سارة» فكانت سعيدة تماما لذهابها مع «جويل». ولكن «راشيل» الآن تتمنى لو ذهبت معهما، ولم يكن باستطاعتها أن تبقى في قاعة الانتظار بالفندق، كما لم تكن لديها رغبة خاصة في الخروج في الهواء البارد الرطب. ونهضت ووضعت حزام حقيبتها الجلدي على كتفها، وخطر لها أن تسير على شاطئ البحر مسافة قصيرة فلربما وجدت مبنى مدينة الألعاب. وخرجت إلى ردهة الاستقبال متجاهلة العيون العديدة التي تتبع سيرها، وبدأت تهبط الدرج، وترددت قبل أن تبارح الفندق. وجاء صوت غريب من خلف أذنها يقول: لا ينبغي أن أشغل نفسي بأمره! واستدارت لتواجه واحدًا من الرجال الذين كانوا يرقبونها، وقالت في شيء من الصلابة:

– عفوًا، ماذا تريد؟

– زوجك! الشخص الذي مضى مع الفتاة الصغيرة، لا ينبغي أن أشغل نفسي بأمره.

– أعتقد أنك مخطئ.

– لا! هو المخطئ يا حبيبتي، كيف يترك زهرة جميلة مثلك؟ ما الذي حدث؟ هل تشاجرتما؟ ونظرت «راشيل» حولها تطلب النجدة، ولكنها كانت قد ابتعدت عن الفندق، ولم يكن هناك من يستجيب لنداء الاستغاثة، وقالت:

– أرجوك أن تنصرف، وتتركني لحالي، إن زوجي وابنتي قادمان الآن.

– حقًا؟ لا يبدو ذلك.

– انصرف عني! كانت أنفاس «راشيل» قد بدأت تضطرب، ولم يكن قد حدث لها مثل ذلك من قبل.

– تعالي... واشربي كأسًا معي ومع صديقي، لن تجدي إنسانًا في هذا الضباب.

– إذا لم تنصرف! وسمع صوت يقول:

– «راشيل»! كان صوت «جويل» موضع ترحيب كامل من «راشيل». كان يخطو

بخطوات واسعة خلال الحديقة، بينما «سارة» تجد في أثره، وجرت «راشيل» لتقابله وألقت بنفسها بين ذراعيه وهي ترتعد، ثم دفعها بيديه، وأخذ يسأل:

– ما الخبر؟ ماذا كان ذلك الرجل يقول لكِ؟ واستعادت «راشيل» هدوءها، وقالت:

– أوه... أوه... لا شيء. ونظرت وراءها، ولكن الرجل كان قد اختفى، وعندئذ أخذت «سارة» تشد بقوة يد أمها:

– قابلنا ذلك الرجل صديق «جويل»، وهو يمتلك هذا القارب، وقال إذا حضرت في يوم آخر لا يكون فيه ضباب، فسوف يأخذني في القارب، ممكن يا مامي؟ ممكن؟

وقال «جويل» وهو يهز رأسه:

– ليس الآن يا «سارة»... ماما الآن تعاني صدمة بسيطة. وأدار بصره إلى «راشيل».

– هل دخل الفندق، ذلك الرجل الذي كان يتحرش بكِ، وهل أجد في أثره؟ وهزت رأسها بسرعة، وقالت:

– أوه! لا... لا... هو لم يتحرش بي حقيقة، كان فقط يستظرف نفسه على ما أعتقد، وفضلا على ذلك فإنهما في الحقيقة رجلان في الفندق. كان فم «جويل» متجهمًا، وقال:

– هل تقولين ذلك لتخيفيني؟ أم أنك تخشين أن يصيبني بعض الأذى؟ وحركت «راشيل» كتفيها وتمتمت:

– بعض من هذا وبعض من ذاك، على ما أعتقد! وتردد «جويل» لحظة، وقال:

– هيا... لنبحث عن مكان نشرب فيه الشاي، وبعدئذ نعود إلى المدينة. كانت رحلة العودة إلى «لندن» بالنسبة إلى «راشيل» أكثر إمتاعًا، واستطاع «جويل» أن يجعل من شخصه صحبة مسلية، وكانت «سارة» تشعر بسعادة غامرة لأن أمها الآن تشارك في الحديث، ولكن «سارة» غلبها النعاس في المقعد الخلفي للسيارة، وقال «جويل».

– لم يكن اليوم ناجحًا للغاية؟ ونظرت «راشيل» إليه شزرا وقالت:

– كيف؟

– أخذتكما إلى «برايتون» وكنت أعتقد أنه بإمكاننا أن نجد بعض الوقت للحديث... لكن لم تسر الأمور وفق تقديري... ودمدمت «راشيل»:

– ولم تكن البداية طيبة كذلك. وعلق:

– وتعتقدين أنني المسؤول عن ذلك؟

– لم أقل هذا!

– هل تعتزمين إذن أن تتحدثي إلي؟

– ألسنا نتحدث الآن؟

– لا... إننا نتبادل الكلمات فقط.

– أوه! يا «جويل»! لماذا تصر دائما على أن تجعل الحياة صعبة؟ لماذا لا تقبل أنني سأتزوج أباك.

– لا أستطيع أن أقبل ذلك.

– يجب أن تقبله.

– «راشيل»، إن «سارة» ابنتي... إنها لحمي ودمي. وتقوست أصابع «راشيل»، وقالت:

– إن لك عملك وحياتك يا «جويل»، وهذا ما تحرص عليه.

– كنت أظن أن ذلك كل ما أريد... وهزت رأسها في يأس، وقالت:

– هل أنت متأكد أن الأنانية ليست الدافع الوحيد وراء اهتمامك؟ وتصلبت أصابعه على عجلة القيادة، وقال:

– إنني أتركك توجهين إلي كلامًا كثيرًا يا «راشيل»، ولا يمكن لشخص آخر أن يتجرأ على جزء مما تفعلينه. وأدارت «راشيل» رأسها، وصارت تحدّق بلا غاية، وقالت:

– لست أطلب تسامحك أو تساهلك! وأخذ «جويل» يسب برفق:

– لا... ألا تستطيعين أن تلتقي معي على منتصف الطريق؟

– لا توجد علامة تحدد منتصف الطريق فيما بيننا. ودمدم في صوت أجش:

– أعتقد أنك لست أقل احترامًا لي في داخل نفسك... واحمر وجهها، وقالت:

– لا أعتقد أن تبادل السباب يمكن أن يؤدي بنا إلى أي تقدم...

– إنني لا أسبك... إنني فقط أذكر الحقائق..

– ما الفائدة التي ترجى من إثارة هذا الآن؟

– ولم لا؟ كان من حقي أن أعتبر هذه نقطة جوهرية تمامًا في الموضوع. وصاحت في غضب:

– فقط لأنني أخذت على غرة عندما جذبتني... وهذا لا يعني أنني أحتفظ بعاطفة يائسة نحوك... ومن الغريب أنني لا أستطيع مقاومتك. وساد صمت كامل، وعندما جازفت بالنظر إليه مرة ثانية أحست إحساسا سخيفا بالندم عندما رأت خطوط المعاناة التي ترتسم على فمه. وأوقف «جويل» السيارة أمام مدخل المبنى حيث يسكنان، وقطبت «سارة» وجهها عندما رأت أن أمها فقط تستعد للنزول وأخذت ببراءة تدعو «جويل»:

– ألا تنوي أن تأتي معنا يا «جويل»؟ وتبادلت «راشيل» معه نظرات سريعة وعززت الدعوة بشيء من الحرج:

– نعم، تفضل، سوف تشرب الشاي وتتناول بعض الشطائر إذا كنت تقبل ذلك. وتردد «جويل» بعض الشيء، وكانت أصابعه لا تزال حول عجلة القيادة، وسأل:

– وماذا عن السيدة «تالبوت»؟ ألا تجد في ذلك شيئًا من الغرابة؟ وأجابت «سارة»:

– السيدة «تالبوت» ليست هنا، انصرفت هذا الصباح، أقامت مع ماما الليلة الماضية عندما كنت أنا في المستشفى. وخرجت «راشيل» من السيارة، لكن «جويل» كان سبقها إلى ذلك، وأغلق بابه بالمفتاح، كما أغلق بابها. ورفع «سارة» على كتفيه وقال لها:

– إذن، كنت في المستشفى الليلة الفائتة يا عزيزتي، ماما لم تقل شيئًا عن ذلك. واستقلا المصعد إلى الشقة، وظل رأس «راشيل» مطأطأ تخشى اللحظة التي تخبر فيها «جويل» بالحقيقة؛ إذ كانت تحس أنه قد آن الأوان لذلك، وحمدت الله أنه لم يثر الموضوع بعدما دخلوا الشقة مباشرة، بل استرخى على الأريكة، وصار يبدي

إعجابه باللعب التي كانت «سارة» تحضرها له ليتفرج عليها، وفي النهاية استجاب لطلبها ورسم صورة كاملة لها وهي تلعب مع «هيلغا» ولعبها الأخرى، وقالت «راشيل» إنها صورتها المطابقة لها تماما. زاد الجوع من شهيتها للطعام، ورفضت أن تفكر في أي شيء آخر، وجلس «جويل» على الطرف الآخر من المائدة بعد أن خلع سترته القطنية. وكلما وقعت عيناها في عينيه كانتا تحذرانها بأنه لم ينه بعد الموضوع معها، وبعد أن احتسى فنجانا ثانيا من الشاي، قال:

– كان الطعام لذيذًا. ونظر إلى «سارة» وقال:

– ما رأيك في أن أقوم أنا وأنت بغسل الأطباق والأواني بدلاً من ماما؟

– حسنًا. وكان هذا شيئًا جديدًا بالنسبة إلى «سارة» التي لم يسبق لها أن أحست بأنها عضو في أسرة.

– لكن هل أستطيع أن أغسل؟ كانت «راشيل» تجلس قلقة في غرفة الجلوس بينما «جويل» و«سارة» يغسلان الأواني، وكانت تسمع «سارة» وهي تطرطش في الماء وتضحك بسذاجة من الكلام الذي يقوله «جويل»، وخطر لها لماذا لا تستجيب «سارة» لـ«جيمس»! بالدرجة نفسها، لكن «جيمس» لم يسبق أن لاعبها قط. كان يتكلم معها بالطبع، ويهتم بشؤونها، ويحضر لها أشياء كثيرة، لكن لم تكن بينهما العلاقة التي من الواضح أنها قد وجدت بين «سارة» و... أبيها. وعندما رجعا إلى غرفة الجلوس كان وجه «سارة» يعكس بعض الضيق، وقالت:

– سترتي كلها ابتلت... يا ماما. وعلق «جويل» باختصار:

– آسف! إنها غلطتي، سوف تجف. كانت عيناه تتحديان «راشيل» ولم تستطع من جانبها أن تتحمل نظرته القاسية، وقالت تطمئن الصغيرة في شيء من التسرع:

– لا بأس... يا «سارة»، يمكنك أن تخلعي كل ثيابك الآن، وسوف أعاونك على الاستحمام. وصاحت «سارة» في الحال:

– هل يمكن أن ينوب عنك «جويل» في ذلك؟ وزفرت «راشيل» وقالت:

– لا يا «سارة»، سوف أقوم أنا بذلك. وقال:

– ما الحكاية يا «راشيل»؟ هل تخشين أن أرى آثار آلة نقل الدم... هذه هي

علتها... أليس كذلك؟ مرض الكلية؟ كانت «سارة» تريد كوبًا من الحليب لوجبة العشاء، وذهبت إلى غرفة الجلوس لتقول «تصبح على خير» لـ«جويل»، وسألته:

– هل ستأتي لتغطيني في الفراش؟ كانت تبدو صغيرة ومتوسلة في بيجامتها القطنية المزخرفة بغصينات النبات. وكانت «راشيل» ترقب وجه «جويل»، وتعجبت: هل يمكن أن يتغير شعوره نحو الأطفال؟ وخطر لعقلها خاطر مخيف، لو أن «جويل» علم بوجود «سارة» في ظروف أخرى، فلربما رغب في أن يتبناها هو و«إريكا»! وكان صوتها جافًا، وهي تحدث «سارة»:

– أرجوك أن تسرعي يا «سارة»، فقد تجاوزت الساعة السابعة. وردت «سارة» بإصرار:

– أريد أن يأتي «جويل». ونهض «جويل»، وقال:

– ولم لا؟ ونظر إلى «سارة» بابتسامة متسامحة وهو يقول:

– هيا، أريني أين تنامين؟ وصحبتهما «راشيل» إلى غرفة النوم، وبعدما قبلت «سارة» وتمنت لها أن تصبح على خير، تركتهما وعادت إلى غرفة الجلوس، ولم تكد تفعل حتى رن جرس الهاتف، وبدأت أعصابها تهتز. كانت تستطيع أن تتصور من المتحدث، وقالت في صوت هادئ:

– هالو!

– «راشيل»؟ «راشيل»؟ هذا أنتِ؟ كان صوت «جيمس»، ونشقت «راشيل» نفسا مضطربا قبل أن تجيب:

– نعم، نعم يا «جيمس»، إنه أنا!

– هل أنت بخير؟ يبدو عليك الاضطراب.

– لا، لست مضطربة. وكانت «راشيل» تحاول بصعوبة أن تحتفظ بثبات صوتها، وأضافت:

– الواقع أنني كنت أساعد «سارة» على النوم.

– وكيف حالها؟ هل سار كل شيء على ما يرام الليلة الفائتة؟

– نعم... كان كل شيء على ما يرام... وكيف حالك يا «جيمس»؟

– كالعادة، على أحسن ما يكون، وماذا عنكِ؟ هل تستمتعين بوقت جميل في «لندن»؟

– إنه أبعد ما يكون عن ذلك يا «جيمس».

– ولم لا؟ لا شك أن الآنسة «كلاي» أخبرتك أنني فتحت لك حسابًا في مصرف «هارودز»، ألم تخبرك بذلك؟ كنت أتخيل أنك تستمتعين بصكوك الشراء المفتوحة.

وزفرت «راشيل» زفرة، وقالت:

– لا! لا! لابد من أن الآنسة «كلاي» نسيت أن تخبرني بذلك، لكن أرجوك ألا تسبب لها المتاعب يا«جيمس»!

– سوف يكون أول شيء أفعله في الصباح أن أتصل بالآنسة «كلاي» حول هذا الموضوع. كانت «راشيل» تحاول أن تعترض، ولكنها تعلم أن ذلك الاعتراض بلا جدوى، فإن «جيمس» عندما يقرر أمرًا يصمم عليه بلا تراجع، وكانت يدها التي تمسك بالسماعة ترتعد بعض الشيء، وواصل حديثه:

– وعلى أية حال، ظننت أنه من المناسب أن أضعك معي في الصورة فيما يتصل بترتيبات حفل الخطوبة، اتخذت بالفعل بعض الترتيبات الأولية وخطر لي أنك ربما تريدين أن توجهي الدعوة إلى أشخاص معينين. وهزت «راشيل» رأسها بالنفي ثم قالت:

– لا أعتقد. إن الأشخاص الوحيدين الذين يمكن أن تدعوهم يعيشون بعيدًا عن «لندن».

– حسنًا إذًا. أجاب «جيمس» بهذه الإجابة ولم يبد أنه شعر بنوع من الإحباط، وخيل إلى «راشيل» أنه لن يتحمس لدعوة أيٍّ من زملائها من ملجإ الأيتام، ولا شك أنه كان يريد أن يجعل منها صورة مثالية يصنعها على يديه، كما كان يفعل من قبل مع كل الأطفال الأيتام الذين كان يتبناهم. وأحست «راشيل» بـ«جويل» يقدم من الداخل، ثم وقف خلفها، ولم يقل شيئًا، ولكنها أحست بوجوده الصامت، وكان ذلك مما سبب لها بعض التوتر وقالت، وكأنها تريد أن تنهي الحديث:

– هل هذا كل شيء إذًا؟ وتبع ذلك صمت دام لحظة، وتحدث «جيمس» أخيرًا:

– هل أنت متأكدة أنه لا يوجد ما يضايقك يا «راشيل»؟ يبدو أنك شاردة بعض الشيء. وحبست «راشيل» أنفاسها، وقالت:

– أخبرتك يا «جيمس»، أنني بخير، كل ما لدي هو شيء من الصداع. وأحدث «جويل» صوتًا يدل على التشكك، وصار يتنقل داخل الغرفة وقد أشعل سيجارًا، ولحسن الحظ فإن «جيمس» كان يحاول التخفيف عنها، ولم يسمع شيئًا غير مناسب، وسألها:

– لماذا لم تقولي لي ذلك؟ لابد من أنه تغيير الجو. وسكت لحظة ثم قال:

– حسنًا يا عزيزتي، سأضع السماعة، وعلى فكرة، فإنني أنوي العودة يوم الثلاثاء بدلاً من الخميس، وسأخبرك بوقت الوصول فيما بعد، بلغي «سارة» حبي، هل تفعلين؟

– سوف أفعل، وداعًا يا «جيمس».

– إلى اللقاء يا حبيبتي. قالها باللغة الألمانية، وأردف يقول:

– كما ترين، فإنني أتعلم اللغة. وأجابت «راشيل» إجابة مناسبة، والتفتت على مضض لتواجه «جويل» الذي كان يقف أمام المدفأة، وعلق في سخرية باردة:

– حبيبتي! قالها هو الآخر باللغة الألمانية، وأضاف:

– أبي تحول إلى عاشق في كبر سنه. واتجهت «راشيل» إلى النوافذ تجذب الستائر، وهي تقول:

– هل ينبغي أن تكون بغيضًا؟ يخيل إليّ أنك بعدما اكتشفت نقطة الضعف في «سارة» تريد أن تستغلها في الاعتراض. وزفر «جويل» زفرة ثقيلة، وأجاب في شيء من القوة:

– أعتقد أنه كان من حقي أن أعرف الحقيقة عن حالتها، قلت من قبل إنها تعاني فقرًا طفيفًا في الدم، وكانت تلك إجابة مضللة، «سارة» تحتاج إلى جهاز الكلية الصناعية، وذلك هو السبب في دخولها المستشفى الليلة الماضية. واتجهت «راشيل» إليه، وهي تطوي يديها بإحكام:

– حسنا، سأخبرك بالحقيقة، ولدت «سارة» بنقص طبيعي في كليتيها. واغتم وجه

«جويل»، وقال:

– استمري! وبدت «راشيل»، وكأنها تبحث عن الكلمات، وقالت:

– حسنا... نحن... أنا... لم أكن أعلم في أول الأمر، كانت تبدو طفلة عادية صحيحة البدن، ولكنها لم تكن تنمو بما يتلاءم مع عمرها. ولم يكن وزنها يزداد بالسرعة المطلوبة، ولكن ذلك يحدث أحيانًا مع الكثيرين من الأطفال... ونظرا لهزال جسمها كانت عرضة للعدوى، وكان أضعف فيروس يجعل حرارتها ترتفع ويجعلها تعاني اضطرابات معوية، وأخيرًا اكتشفنا العلة الحقيقية. واسترخت «راشيل» بوهن في أحد المقاعد المريحة، وهي تحدّق بلا غاية إلى النار المتوهجة في المدفأة، وحركت كتفيها وقالت:

– فحصها الأطباء والإخصائيون، وبذلوا كل ما يستطيعون، لكن لم يكن ذلك كافيًا على الإطلاق، ومنذ ستة شهور كانت تعاني حالة فشل كلوي، وعندئذٍ بدأت جلسات التنقية بالكلية الصناعية. إذ ذاك أخذ «جويل» يقطع الغرفة جيئة وذهابًا بشيء كبير من التوتر، وقال:

– وحتى عندئذ لم تفكري على الإطلاق في أن تطلعيني.. ونظرت «راشيل» إليه بنظرة تدافع بها عن نفسها، وهي تقول:

– ولماذا أفعل ذلك؟ لم يكن همك... كان همي أنا، فأنا التي قررت أن أحضر «سارة» إلى الوجود.

– ولكن في مثل تلك الظروف!

– لم تكن للظروف علاقة بأي شيء... كانت فقط غلطة من غلطات الطبيعة، وربما كان ذلك عقابا على فعلتي. ودمدم بوحشية:

– لا تتحدثي بمثل هذا الهراء... ماذا فعلت غير أنك هجرتني!

– حسنا! وحتى ذلك... ربما يكون بالوراثة... من المحتمل أن أبوي أيضًا كانا..

– ولـ «سارة» أبوان أيضًا! وصاحت في ارتعاش:

– ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث في أسرتك... هل حدث؟ وقطب «جويل» حاجبيه وهو يكرر:

– ألم يحدث؟ ونهضت على قدميها من جديد، وصارت تمشي حول مؤخرة الأريكة، وهي تقول:

– أوه يا «جويل»! لا تعذبني! حسنًا، على أية حال، كان ذلك هو الموقف منذ ستة شهور و... وقاطعها:

– وأين موقع أبي من كل هذا الذي حدث؟

– العقيد «فرنشاو» كان يقوم بتصفية ممتلكاته ليذهب ويعيش في الخارج لأسباب صحية... وكان مصرف أبيك يتولى سائر استثماراته.

– وإذن حضر أبي ليزور العقيد، على ما أعتقد.

– نعم، كان كل منهما يعرف الآخر منذ سنوات في «لندن»..

– يا لها من مصادفة... وسألت في حرارة:

– هل تعتقد أنني رتبت الأمر بهذه الطريقة؟ كدت أموت من الصدمة عندما فتحت الباب ووجدت «جيمس كنغدوم» يقف على عتبة الدرج، وبالطبع سأل العقيد عني، وعندما رأى «سارة»... وتكورت قبضتا «جويل»، وقال:

– نعم، وبما لديه من معلومات سابقة فطن لما فعلته، ولكن ذلك ما زال لا يفسر لماذا تتزوجينه، هل وعدك بمساعدة مالية من أجل «سارة»؟ هل يوجد جراح مغمور في مكان ما أنتج عقارًا علاجيًا؟

– لا! لا! وعلى الأقل، إنه حل بسيط للغاية حقًا، فإن فصيلة خلايا دم أبيك تناسب «سارة»، وقد وافق على نقل إحدى كليتيه لتزرع في جسم «سارة».

– 8 –

وحدق إليها «جويل» في رعب وهو يقول:

– ماذا؟ ولكن والدي رجل كبير في السن! وكانت أصابع «راشيل» تتحرك على ظهر الأريكة في شيء من العصبية، وقالت:

– ليس كبيرًا إلى هذه الدرجة... وفضلا على ذلك فإن كليتيه سليمتان، وعلى ما

يبدو فإنهما قابلتان تماما للزرع. ومسح «جويل» جبهته، وقال:

– لكن لا يمكن أن تكوني جادة... يا إلهي... وأنت لذلك تتزوجينه؟

– هذا أحد الأسباب، لعلك تعلم يا «جويل»... أن رعاية طفلة مثل «سارة» لم تكن شيئًا سهلاً، ومع «جيمس» فإنها ستحصل على كل ميزة ممكنة. وأطفأ «جويل» سيجاره، ودمدم قائلاً:

– بإمكاني أن أوفر لها الميزات نفسها. عندئذٍ كانت «راشيل» قد بدأت تعاني حالة هبوط في التنفس وقالت في شيء من الإذعان:

– من الناحية المالية... ربما.. ورفع بصره إليها، وقال:

– وهل ثمة شيء آخر؟ وحولت «راشيل»بصرها بعيدًا عنه، وقالت:

– لن يكون بوسعك أن تفهم..

– أشكرك، لأنني لا أفهم، لن أدعك تنفذين ذلك.

– لا تستطيع أن تمنعني.

– لا أستطيع؟ لو كنت مكانك ما بنيت خططي على ذلك.

– أرجوك يا «جويل»، ألا يمكننا أن نكف عن هذا الشجار؟ أنت لا يعنيك أمر «سارة»، فلديك عملك، ولديك «إريكا غراي».

– أرجوك ألا تدخلي «إريكا» في الموضوع.

– إنك لا تستطيع أن تنكر علاقتك بـ «إريكا».

– ليس في نيتي ذلك... فـ «إريكا» وأنا شخصان راشدان، وإنني أعترف أنه من وقت لآخر...

– لا أريد أن أعرف. ووضعت يديها على أذنيها، ونهض ووقف خلفها حتى أحست بدفء أنفاسه، وتكلم في صوت أجش:

– إنك لا تريدين أن تعرفي، لا تحاولي أن تنكري! ما كان يحق لك أن تهجريني، أعترف أنني تصرفت بشيء من الأنانية، ولكن حاولي أن تنظري من زاويتي، كنت أريدك، هل تعرفين ذلك؟ أقسم لك أنني في حياتي ما أحببت امرأة أخرى حبًا حقيقيًا. كانت هناك حلاوة سائلة تخفق في عروقها، وأسرع نبضها، وتهاوت

ساقاها وجذبت نفسها بعيدًا عنه، واستدارت لتواجهه، وقالت:

– لا تحاولي إغرائي بالكلام يا «جويل»! وهز كتفيه وضاقت عيناه وانفرجت قدماه، وقال:

– لن يكون بوسعك أن تسيري في هذا الشوط إلى نهايته يا «راشيل».

– سأمضي فيه إلى النهاية، ولن يفلح إغراؤك في صدي عن ذلك. وحدق إليها «جويل»، وقال:

– إنني على استعداد لأن أهب «سارة» إحدى كليتيّ. وقالت في سخط:

– لا! لا أريد شيئًا منك. وسألها بلهجة أشد حرارة:

– ولا حتى ما يصلح صحة ابنتك؟

– سوف تكون «سارة» بخير.

– وإذا فشل نقل الكلية؟ كيف تكون الحال؟ وكزت بأسنانها شفتها، وقالت:

– ولماذا يفشل؟

– ما رأي الأطباء؟ ما النسبة المحتملة للنجاح؟ وحركت «راشيل» رأسها في يأس، وقالت:

– إنهم... يقولون شيئًا معقولاً... لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك.

– إذًا، أنت تضحين بنفسك من أجل الطفلة، ماذا لو فشلت العملية، هل تجازفين بكل شيء بلا مقابل؟ ورفعت «راشيل» يدها، وقالت:

– «جيمس» وأنا لن نتزوج حتى تنتهي العملية.

– أوه! حقا؟ إذًا أنت تتخيلين أنه إذا فشل كل شيء فسوف يقبل أبي أن ينهي الصفقة بينكما؟ وقطب حاجبا «راشيل»، وقالت:

– لماذا؟ طبعًا! ونظر «جويل» إليها نظرة اشمئزاز، وقال:

– إنك لست جادة.

– ماذا تقصد؟ وهز «جويل» رأسه، وقال:

– حسنًا، عرفت من الآنسة «كلاي» أن أبي بصدد أن يقيم حفلاً فاخرًا للخطوبة؟

– أعتقد ذلك. ونشق «جويل» نفسًا عميقًا، وقال:

www.rewity.com

– وتعتقدين أنه بعد أن يشاع الخبر يقبل أبي بإنهاء الصفقة إذا لم تكن نتيجة العملية ناجحة؟

– ولمَ لا؟

– أوَه يا «راشيل»! إنك لست جادة! واسترخى «جويل» على الأريكة، وجعل يده تتخلل شعره، وقال:

– «راشيل»! الرجال مثل أبي يحرصون على صورتهم أمام الرأي العام، وإذا ما قدمك أبي كخطيبة حينئذٍ يكون كسبًا كبيرًا لرجل في عمره، وإذا حاولتِ أن تنهي الخطوبة، لن يترك فرصة في الصحافة دون أن يستغلها لفضح أمرك، إذا خُطبت لأبي فإن عليكِ أن تقولي الوداع لحريتك. وحدَّقت «راشيل» تجاهه:

– إنك تقول هذا لتخيفني. وارتفع حاجباه الأسودان، وقال:

– لو كنت في مكانك لما جزمت بذلك..

– ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إليك؟ لماذا تهتم سواء أكان ذلك سيحدث أم لا؟ وأجابها:

– أنا لم أكف قط عن السعي للوصول إليكِ، أنا أريدك دائما، هنا، والآن. كانت عيناه غارقتين في الانفعال، وصارت راحتا «راشيل» تضغطان بيأس على كتفيه، وخطرت لها بشرة «جيمس»، وكيف كانت تزخر بالخطوط والعقد... وأمسك «جويل» بإحدى يديها... وكان المجهود الذي تحتاجه لتدفع بنفسها بعيدًا عنه شيئًا أكبر من طاقتها، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تخلص نفسها منه، ووقفت تتنفس بشدة وشعرها طليق كالحرير حول وجهها المتورد، وقالت في ثورة عارمة وهي تجذب قميصها:

– إنني أكرهك يا «جويل»، اخرج من هنا! ليتني ما رأيتك ثانية. كان «جويل» يجلس ويداه تتدليان في استسلام، ونهض ببطء وقد تجمدت نظرة عينيه، وعلق ساخرًا، وهو يلتقط سترته ويرتديها:

– آسف، لا أستطيع أن أضطرك لتأخذي بالاختيار الثاني، أما بالنسبة إلى الاختيار الأول، فإنك تسخرين من نفسك يا «راشيل»! إنك لا تكرهينني ولكن إذا أصررت

على ذلك، فسوف أكرهك. ظلت «راشيل» يقظة طوال الليل، كان جزءًا نزويًا فيها يحن إلى «جويل»، وحاولت يائسة أن تهرب من عذاب تلك الأفكار التي لا تستطيع أن تصرح بها، لم تكن قد سمحت لنفسها على الإطلاق أن تتذكر تلك الليلة التي أمضياها سويًا، والتي كانت تحجب بين طياتها قناع القدر والإذلال، لكنها الآن، تتجاهل تلك الذكرى... لو أنه فقط طلبها للزواج... لكن مثل تلك السعادة كانت سرابًا مع رجل مثل «جويل»، كانت تفهم أنه يريدها. لكنها لم تكن تريد علاقة أشبه بالرمال المتحركة تُبنَي على الجاذبية وحدها. كانت تحب «جويل» بكل الرقة والعاطفة، ولكنه أخذ حبها ودمره. وفي الصباح أخبرت «راشيل» «سارة» أنها سوف تصطحبها في جولة إلى السوق، كانت تريد أن تشتري لها بعض الملابس الجديدة، ولكن الدافع الحقيقي هو أن تخرج من الشقة قبل أن يحضر «جويل»، وسألت «سارة» أمها، وهما يهبطان إلى محطة الحافلة:

– ألن نرى «جويل» اليوم؟ وأحست «راشيل» بشعور من القلق، ولكنها أجابت بحزم:

– نعم! «جويل» لديه عمل وليس لديه وقت للحضور إلينا.

– ولكنه قال في الليلة الفائتة إنه سيأتي ويصحبني إلى حديقة الحيوان اليوم. وأجابت «راشيل»:

– لا أعرف، سوف يأخذك العم «جيمس» إلى حديقة الحيوان إذا طلبت منه ذلك. وأجابت «سارة»:

– لا أريد أن أذهب مع العم «جيمس». لم تكن جولة التسوق ناجحة، كانت «سارة» ترفض أن تقيس الملابس الجديدة، وكانت ملامحها الشاحبة وفمها الرافض يجعلان الملابس الجميلة تبدو أقل رونقًا، وتناولتا وجبة الظهيرة في المدينة، وعندما رجعتا إلى الشقة، كانت «سارة» تمتلك ثلاثة فساتين، وبذلات ذات سروالين، وبعض الملابس الداخلية، وسترة جديدة ذات فراء وقلنسوة، ومعطفًا غاليًا من الجلد للمناسبات الخاصة، ولكنها لم تكن تكترث لكل ذلك. لم يكن هناك أثر لـ «جويل»، وكانت «راشيل» مرتاحة لذلك، أما «سارة» فبعدما أكملت «راشيل»

تهيئتها في مخدعها للنوم، قالت:

– أفضّل أن يقيم معنا «جويل» بعد أن تتزوجي، وهذا قراري. وروعت «راشيل» عندما سمعت ذلك، وقالت:

– لا تكوني سفيهة يا «سارة»!

– لماذا؟ ستكونين أمًا له أيضًا؟ ألا تفضلين ذلك؟ لماذا لا يعيش معنا؟

– شرحت ذلك من قبل يا «سارة»! إن لـ «جويل» بيته الخاص، وفضلا على ذلك فإننا سوف نعيش في بلاد اليونان.

– وأين بلاد اليونان؟

– قلت لكِ يا «سارة»، إنها على مسافة.. بعيدة جدًا، حيث تشرق الشمس طول الوقت.

– أنا لا أريد الشمس أن تشرق طوال الوقت.

– لا حيلة لي في ذلك!

– أحب أن أبقى في «إنجلترا».

– ولكن العم «جيمس» يريد أن يعيش في بلاد اليونان، إن له جزيرة، كما قلت لك، والمياه جميلة ودافئة، وتستطيعين أن تسبحي.

– أنا لا أستطيع السباحة.

– سوف تتعلمين.

– لا أريد أن أتعلم.

– «سارة»... أحذرك.

– لماذا يكون علينا أن نذهب لنعيش في بلاد اليونان ذات الهواء الرديء؟ لماذا لا تتزوجين «جويل» وتعيشين في «لندن»، أوه...إن ذلك يكون شيئًا بديعًا... وسيكون أبي عندئذ.

– «سارة»! وحدّقت إليها «سارة» بفضول وقالت:

– ما الحكاية؟ ليس معنى أنك تتجادلين معه باستمرار أنكما لن تصبحا صديقين.

– «سارة»! من فضلك! ووضعتها «راشيل» في الفراش، وأحكمت عليها الغطاء،

وقالت:

– «سارة»! «سارة»! أرجوك! لا أريد أن أسمع مرة ثانية شيئًا عن «جويل كنغدوم» سوف أتزوج العم «جيمس»، وسوف نعيش في بلاد اليونان... هل هذا واضح؟ كان وجه «سارة» مقطبًا، ولكنها أومأت برأسها، وقالت:

– نعم! يا ماما!

– حسنًا، والآن تصبحين على خير! وفي اليوم التالي استيقظت وفي رأسها صداع، ولم تكن تشعر بالرغبة في الاستيقاظ وإعداد الفطور، وحتى وجه «سارة» الحزين لم يستطع أن يبعث فيها النخوة، وكان من الواضح أن الطفلة لم تنس بعد ما دار بينهما من حديث في المساء السابق، فهي لم تذكر اسم «جويل» بالفعل ولكنها كانت تسرع إلى النوافذ كلما سُمع صوت لتستطلع الأمر، والحقيقة أن «راشيل» ذاتها أصابها شيء من الدهشة عندما لم يتصل بها «جويل». لم تكن تتوقع أن يفقد الأمل بتلك السهولة، ولم يكن الجو في الخارج مشجعًا، وبقيتا في الشقة، وذهبت «سارة» في النهاية إلى الفراش، وهي في حالة من الكآبة.. وعندما حان ظهر اليوم التالي وامتد الوقت إلى ما بعد الظهيرة ولم يُسمع شيء عن «جويل» بدأت تشعر بالقلق، أما «سارة» فكانت في حالة من الكسل لم تفكر معها حتى في اللعب بدميتها «هيلغا» بل رفضت الخروج في صحبة أمها لشراء بعض الخبز، وكان التليفزيون يعرض برامجه، لكنها لم تكن تلتفت إليه، وكانت وجنتاها أكثر شحوبًا من ذي قبل. كانت أمامها فترة تمتد لأكثر من الأربع والعشرين ساعة لتدخل المستشفى ثانية للعلاج، ولم تكن «راشيل» قد رأتها من قبل في مثل تلك الكآبة، واتجه غضبها إلى «جويل»، لقد كان بإمكانه أن يتصل بالطفلة ولكنه لم يفعل! وبعد أن شربا الشاي اقترحت «راشيل» أن تخرجا للسير في شارع «ريجنت»، ولم تكن حديقة «ريجنت بارك» تبعد كثيرًا، وكانت تأمل أن يعيد الهواء النقي إلى وجنتي «سارة» بعض البهجة، ولكن «سارة» رفضت الخروج، وقالت:

– اخرجي أنت، إنني لا أحس برغبة في المشي.

– ولكنك يا «سارة»، لم تخرجي منذ يومين. ونظرت «سارة» إليها، من خلال

عينين قاتمتين عاصفتين.

– و«جويل» لم يحضر هنا منذ ثلاثة أيام، ماذا قلت له؟ لماذا أغضبته؟ وضغطت «راشيل» راحتيها معًا، وقالت في اعتراض:

– لم أغضبه، أعتقد أنه مشغول يا «سارة»، ومع ذلك سوف يعود ثانية.

– حقًّا؟ إذًا سوف أنتظر هنا، فلربما يتصل هاتفيًّا، أليس ذلك محتملاً؟ وتنهدت «راشيل» وقالت:

– هذا سخف يا «سارة»! لا شأن لنا بـ «جويل».

– لقد أحببته، وأحبني...

– أنا متأكدة أنه أحبك يا عزيزتي، ولكن ذلك لا يعني شيئًا، عليك أن تفكري في المستقبل يا «سارة» فخلال أسابيع قليلة سنسافر إلى الخارج، وعندئذ..

– قلت لكِ إنني لا أريد السفر للخارج. ورفضت «راشيل» أن تعلق على ذلك، أخذت تذرع الغرفة بقلق واستندت «سارة» إلى أحد مرفقيها، وصعدت إلى الأريكة، وقالت:

– يمكنك أن تطلبيه بالهاتف، ألا تفعلين ذلك يا مامي؟

– لا! «سارة» يا حبيبتي، لا أستطيع.

– لماذا لا تستطيعين؟ ألا تعرفين رقم الهاتف؟ كان بوسع «راشيل» أن تكذب تلك الكذبة الصغيرة، ولكن «راشيل» لم تستطع أن تكذب، وفضلا على ذلك فإن «سارة» كانت على درجة من الذكاء، وكانت ستجد طريقة للتوصل إلى الرقم.

– ربما يكون لديه ناس في شقته... ضيوف مثلاً... وربما يكون لديه عمل.

– إذن، سيرد «هيرون» على الهاتف. وهزت «راشيل» رأسها، فقد كان لدى «سارة» لكل سؤال جواب.

– وماذا تنتظرين مني أن أقول له؟

– قولي له... إنني أريد أن أراه. وأخذت «راشيل» تجتاز السجادة جيئة وذهابًا بقلق. كيف يجوز لها أن تطلب «جويل»؟ كان ذلك من وجهة نظرها شيئًا مضحكًا، وبصفة خاصة بعد الطريقة التي افترقا بها، وقالت:

– لا أستطيع أن أفعل ذلك يا «سارة».

– تعنين أنك لا تريدين أن تفعلي ذلك. وعرفت «راشيل» أنها كانت على وشك أن تصاب بحالة من الهيستريا، وقالت لها:

– كوني متعقلة يا «سارة»!

– انصرفي بعيدًا عني! لا أريد أن أراكِ، أريد أن أرى «جويل». وتكورت قبضتا «راشيل» في عصبية واجتازت الغرفة، ورفعت السماعة، وأدارت الأرقام. فرغم السنوات لم تنس أرقام هاتف «جويل». وهيئ لها أن الجرس سيرن طويلاً على الطرف الآخر، وعندما رد «هيرون» كادت أن تغلق وتعيد السماعة إلى مكانها، ولكن وجه «سارة» المبتل بالدموع، أجبرها على أن تذكر اسمها وتطلب التحادث مع السيد «كنغدوم»، ورد «هيرون» بأدب:

– آسف، فالسيد «كنغدوم» يستريح، وطلب ألا يزعجه أحد، هل من رسالة؟ وكزت «راشيل» على أسنانها... يستريح! ولا يريد أن يزعجه أحد؟ وأجابت:

– لا، ليس ثمة رسالة. وعندما أعادت السماعة، انتصبت «سارة» وقالت:

– ما الخبر؟ لماذا لم تتحدثي معه؟

– إنه يستريح، لا أعتقد أنه بخير. ولم تكن تعرف كيف يكون رد فعل «سارة» التي انفجرت تقول:

– لماذا؟ هل هو مريض؟ هل نذهب لنراه؟

– لا يا «سارة».

– لمَ لا؟

– لأننا لا نستطيع، ولكن سوف يخبره «هيرون» بأنني طلبته عندما يستيقظ. وردت «سارة» وقد انهمرت الدموع من عينيها:

– لا أصدقك! إنك فقط تقولين ذلك.

– لا! ولم تكن «راشيل» تعرف كيف تقنعها وبدأت «سارة» تسأل أمها:

– لماذا لا تحبين «جويل»؟ لماذا لا تريدين أن تذهبي لزيارته؟

– لا نستطيع أن نفعل شيئا يا «سارة» حتى يتحسن.

www.rewity.com

– لم لا؟

– لأننا لا نستطيع.

– ومتى يتحسن؟

– وكيف لي أن أعرف ذلك؟ وانسلت «سارة» من فوق الأريكة، وجاءت إليها:

– أرجوك يا مامي! أريد أن نذهب إلى شقته لنراه، سوف أكون بخير إذا فعلنا ذلك، ويمكننا أن نأخذ له بعض الزهور. واضطرت «راشيل» أن تقمع الرد الذي كانت ستجيب به، وقالت:

– ومن أين نستطيع أن نحضر الزهور في هذا الوقت من المساء؟

– إذن، لنحضر بعض الحلوى. أوشكت «راشيل» أن تفقد صوابها، بينما يبدو كل شيء غاية في البساطة من وجهة نظر «سارة»، ونظرت «راشيل» بقلق إلى ساعتها: السادسة والنصف. ولم تستطع أن تصدق عينيها. ورأت وجه «سارة» الصغير يحدق إليها بنظرة متوسلة، واتخذت القرار فجأة، لم لا تأخذ الطفلة إلى مسكن «جويل»؟ «هيرون» هناك، وسوف يتلقى الأوامر من سيده... وعندما تسمع «سارة» كل شيء منه، فربما يتضح لها أن «جويل» ليس الملاك الذي كانت تتخيله... وقالت في شيء من التردد:

– حسنًا... سوف نذهب إلى مسكنه... ولكن إذا ما رفض «هيرون» أن يسمح لك برؤية «جويل»، فعليك أن تتقبلي ذلك، هل تفهمين؟ وارتعدت شفتا «سارة»، وقالت:

– هل يعقل أن يفعل ذلك؟

– لا أعرف، سيكون عليك أن تنتظري حتى تعرفي بنفسك. كانت «راشيل» تتكلم عن عمد حتى تتهيأ لأسوأ ما يمكن أن يصادفها، واستقلتا سيارة أجرة إلى ذلك المبنى الفاخر الذي يطل على حديقة «ريجنت بارك» والذي يشغل «جويل» منه الشقة القائمة فوق سطحه، وكانت ذكرى مؤلمة لـ«راشيل»، إذ تذكرت آخر مقابلة بينها وبين «جويل» في شقته، وكانت تلك الذكرى تقترن بالحزن والإذلال... واستقلتا المصعد، وتردد صدى قرع الجرس داخل الشقة، وتصلبت عضلات «راشيل» في

شيء من العصبية لما قد يحدث بعد ذلك، لكن لم يصدر من داخل الشقة أي صوت يجيب... ونظرت «راشيل» إلى وجه «سارة» المضطرب؛ ودقت الجرس من جديد بشيء من التصميم، وبدأ وجه «سارة» يتغضن بعد المحاولة الثالثة، وسألت وهي تبكي:

– إنه غير موجود؟ هل تظنين ذلك؟ إنه ليس متوعكًا على الإطلاق، كان «هيرون» يدعي ذلك فقط. ولم تكن «راشيل» تعرف كيف تجيبها، وكان واضحًا أن الموقف سوف يساعد بالفعل على أن تتحرر «سارة» من الوهم، وكان ذلك ما أرادته، ودمدمت في شيء من الغرابة:

– من المحتمل أن يكون «هيرون» قد خرج... ومن المحتمل أن يكون «جويل» نائمًا. وأخرجت «سارة» زفرة من أنفها وقالت:

– لو كان ذلك... لسمع جرس الباب.

– نعم، ولكنه قد لا يأتي ليجيب. وسمع صوت الباب ينفتح من خلفهما، فاستدارتا في دهشة، وارتفع صوت «سارة»:

– «جويل»! إنك هنا! كان «جويل» يستند متثاقلاً إلى الباب، وهو يحاول أن يقف بجهد كبير، لحيته طالت في خلال يومين مما أضاف شحوبًا إلى فكيه، وكان يلبس إزار حمام وضعه على جسمه بطريقة متسرعة، وقد بدت بعض حبات العرق على جبهته، وشعره أشعث، ومن الواضح أنه في حالة صحية سيئة، ودمدم وهو يزيح شعره عن جبهته:

– آسف، لم أكن أتوقع أن يزورني أحد، وقد انصرف «هيرون». واستجمعت «راشيل» رباطة جأشها:

– إننا آسفتان أيضًا يا «جويل»، أنا و«سارة» أردنا ذلك... وكانت قلقة عليك. وخطا «جويل» إلى الخلف مستندًا إلى الحائط وقال:

– ألا تدخلان؟ وعضّت «راشيل» شفتها وقالت:

– ربما يكون من الأفضل ألا نفعل. وقال «جويل»، وهو يجفل من تقلصات أصابته:

– أرجوكما أن تدخلا، سوف أكون بخير، فقط أعاني صداعًا قويًا. كانت «راشيل» تنظر إليه بشيء من الشك، ولكنه كان يرتعش وتأكدت من كونه لا يصطنع الصداع، وتصورت المسألة لابد من أن تكون حالة الصداع النصفي التي كانت تصيبه، وأمسكت بيد «سارة»، ودخلتا إلى الشقة، وأخذتا تهبطان الدرج إلى غرفة الجلوس الرئيسية، كان ذلك الخطو يعود بها أدراج الزمن، غير أن السجادة السميكة كانت جديدة، وكانت تنسجم مع الأريكة المخملية الطويلة المقوسة ومع الكراسي الوثيرة الأنيقة، وكانت أبراج «لندن» وسطوح المباني تبدو من خلال الستائر الطويلة خلف النوافذ الزجاجية المعدنية. وأغلق «جويل» الباب، وأسند ظهره إليه، وأخذ يحكم حزام إزار الحمام، كانت «سارة» خلال ذلك قد أطلقت يدها من يد «راشيل» وأخذت تستكشف المكان الجديد.

– «سارة»! ولكن «جويل» أشار إليها بألا تقلق، وقال:

– لا تقلقي، أستأذنك بضع دقائق، أصلح فيها من نفسي بعض الشيء. وقالت «راشيل» في شيء من الحرج:

– لا نريد أن نزعجك، «هيرون» أخبرنا أنك تستريح و...

– «هيرون»؟

– اتصلنا بك هاتفيًا منذ حوالي نصف الساعة.. وهكذا عرفنا، ربما ما كان ينبغي أن نأتي. وحدّق «جويل» إليها لحظات قليلة، وأخيرًا لاح في عينيه شيء من الفهم.

– أستطيع أن أتصور ما فكرتِ فيه. وطأطأت «راشيل» رأسها، وانتهزت «سارة» الفرصة لتتدخل، وتقول له في شيء من اللوم:

– لماذا لم تحضر لتزورنا؟ قلت إنك ستفعل! وحوّل «جويل» انتباهه إلى «سارة»، وهبط الدرج إلى الجزء الرئيسي من الغرفة، وقال لها في رقة:

– كنت أنوي ذلك، لكنني كنتُ مريضًا في خلال اليومين الماضيين، هل اشتقتِ إليّ؟ ووضعت «سارة» يديها على كتفيه، وأجابت:

– نعم، وانتظرتك لتأتي، وعندما لم تحضر شعرت بالإعياء. وغامت عيناه، وضمها إليه وهو يقول:

– صحيح؟ كانت هذه أول مرة يضم الطفلة إليه بتلك الكيفية، ولم تستطع «راشيل» أن تتحمل رؤية ذلك المشهد، واستدارت واتجهت إلى النافذة، ونهض «جويل» بعد دقيقة، وقال:

– سأذهب لأرتدي ملابسي. واستدارت «راشيل»، وقالت:

– لا داعي... يمكننا أن ننصرف... اطمأنت «سارة»، والأفضل أن ترقد في الفراش لتستريح... ونظر إليها «جويل»، وقال:

– أستطيع أن أرتدي بعض الملابس، وأستطيع أن أتحمل الموقف إذا كنت أنت تستطيعين ذلك... وضغطت «راشيل» راحتيها على وجنتيها، ودمدمت:

– آسفة... ظننت بك ظن السوء، وآسفة لإزعاجك، لا داعي لأن تشغل نفسك بنا... أخذت «راشيل» تتجول في الغرفة كما كانت تتصرف «سارة»، وكأنها تجدد ذكراها... كم أحبت هذه الغرفة فيما مضى! اتساعها، وارتفاع جدرانها، أناقتها. ورجع «جويل» حليق الوجه أنيقًا، أما شعر رأسه فقد أصلح تمامًا بالفرشاة، وكان يبدو نحيلاً جذابًا وهو يرتدي سرواله المتموج البني القاتم وقميصه القمحي المصنوع من حرير سميك، ومع ذلك كانت وجنتاه الشاحبتان والحلقات القاتمة حول عينيه تكشف أنه لم يستكمل شفاءه بعد، وقال وهو يتأرجح عند المدخل:

– والآن... هل أحضر لكِ شرابًا؟ واتجهت إليه لتأخذ بذراعه ولتقوده تجاه الأريكة، وقالت:

– تعال، واجلس، سوف أحضر أنا المشروبات، أي شراب تريد؟ وغاص «جويل» في الأريكة دون معارضة، وأسند ظهره، وقال وعيناه طارفتان:

– يكفيني شراب بارد منعش، إذا سمحتِ. لم يكن ثمة ثلج في الوعاء، واجتازت «راشيل» باب المطبخ تاركة «جويل» و«سارة» لتحضر بعض الثلج من الثلاجة، وتذكرت كيف كانت تعد وجبات العشاء لنفسها ولـ«جويل» هنا، وكيف كانت تجعل «جويل» يجفف لها الصحون، وكيف كان ذلك ينتهي... وسكبت كأسًا من شراب الليمون لـ«سارة»، وآخر من الليمون الحامض لـ«جويل» وكأسا آخر لنفسها، وشرب «جويل» نصف كأسه بطريقة تدل على أنه كان بالفعل يعاني الظمأ،

www.rewity.com

وقال:

– كنت تواقًا إلى هذا... وسألته «راشيل» بقلق:

– هل أكلت شيئًا اليوم؟ هز رأسه، وهو يرتجف:

– لا أستطيع أن أذوق الطعام. وشربت «سارة» كأسها، ثم تسلقت على ركبته متجاهلة اعتراض «راشيل»، وقالت:

– هل تأتي غدًا لتزورنا؟ وداعب «جويل» خصرها الصغير وقال:

– سوف نرى... وقالت «راشيل» بعد أن جلست على السجادة:

– ولكنك لابد من أن تأكل شيئًا! ونظر إليهما «جويل» بطرف عينيه، وقال بهدوء:

– هل تعدينني بألا تتزوجي أبي؟ وأحكمت يديها حول كأسها، وهي تقول:

– ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. ودمدم يقول:

– أريد الفرصة لأبذل ما أستطيع من أجلك، أرجوكِ، أريد هذه الفرصة.

– لا! ونهضت «راشيل» ثانية، ودق جرس الباب ونظرت إلى «جويل» بعينين مستفسرتين، وعلت وجهه علامات الاستسلام، وقال وهي تتجه لتصعد الدرج:

– لا تفتحي الباب! لا أريد أن أرى أي شخص آخر. ولكن «سارة» بحماسها العادي لفتح الأبواب، تسللت عن ركبتيه، واتجهت لتفتح الباب قبل أن يلحق بها أيٌّ منهما ليمنعها من ذلك. كانت «إريكا غراي» تحدّق إلى الطفلة في ذهول، وتصلبت ملامحها الدقيقة عندما رأت «راشيل»، وقالت بشيء من اللامبالاة:

– هل قطعت عليكم شيئًا؟ ووقع بصرها على «جويل»، وقالت:

– أوه «جويل»، حبيبي! هل تشكو من شيء؟ لماذا لم تخبرني؟ حاولت الاتصال بك، لكن كل ما كان يقوله «هيرون» إنك لا تريد أن يزعجك أحد... كانت «سارة» قد أغلقت الباب وهي تحدّق بشيء من الاشمئزاز إلى المرأة التي كانت تلصق بذراع «جويل»، ونظرت إلى أمها، ولاحظت «راشيل» الرعدة التي كانت تنتاب شفتها السفلى، وقالت في هدوء:

– أعتقد أننا يجب أن ننصرف يا «سارة»... فات موعد نومك. لكن «جويل» ابتدرها قائلاً:

– لا! انتظري! «راشيل» لا تنصرفي الآن! قالت «إريكا» بصوت ينم عن السخرية العميقة:

– لو أن وجودي غير مرغوب فيه... وكانت «راشيل» تحس بإحساس مخيف، وقالت:

– لا! ليس كذلك، يا «سارة»! وألقى «جويل» نظرة قلقة تجاه «إريكا»، وقال:

– نحن لم ننه الحديث بعد يا «راشيل»! أرجوكِ أن تنتظري. وزمت «سارة» شفتيها، وقالت:

– أريد أن أذهب إلى دورة المياه. وعبرت «إريكا» عن إحساس بالاشمئزاز، ونظر «جويل» إلى الفتاة الصغيرة، وقال:

– إنك تعرفين أين هي... لقد صحبتك إليها في المرة الماضية... هل تذكرين؟! وأومأت «سارة» بالإيجاب، وخرجت من الحجرة وعندئذ لفت «راشيل» حزام حقيبة يدها حول معصمها، واتجهت نحو الباب تستعد للرحيل، وقطب «جويل» قسمات وجهه، وقال:

– «راشيل»! (وأمسك بظهر الأريكة يستند إليها) «راشيل»!.. أرجوك بحق الله!.. وحدّقت «إريكا» تجاهه في دهشة وقالت:

– «جويل»!.. ماذا يحدث هنا؟ وأدار «جويل» عينين معذبتين تجاهها، وقال بشدة كما لو كان قد توصل إلى قرار:

– نعم!.. لقد حان الوقت لتعرفي كل شيء.. وحاولت «راشيل» أن تسكته فقالت:

– «جويل»! ولكنه تجاهلها قائلاً:

– هناك شيء يجب أن تعرفيه.. يا «إريكا»!.. لقد عرفت «راشيل» منذ سنوات.. عندما كانت طالبة في الكلية هنا.. وكانت قد قابلت أبي في تلك الأيام أيضًا، ولكن «سارة» ليست كما تتخيلين طفلة من أبي..إنها مني أنا.. هل تفهمين.. «سارة» ابنتي!!

* * * * *

- 9 -

خيم الصمت على الثلاثة نصف دقيقة بدت كأنها دهر، وعادت «سارة» ثانية إلى الغرفة. كانت تركز كل اهتمامها في البقعة التي احتلت مكانا بارزا في مقدمة سترتها الفرائية القرمزية ذات القلنسوة، وهمت في كآبة والدموع تسيل على وجنتيها:

– أصابني دوار يا ماما... انظري ما حدث لسترتي. وأحست «راشيل» بشيء من ارتياح في أعماقها لهذه الشكوى باعتبارها نوعًا من التحول، وقالت وهي تتجه إليها:

– أوه يا حبيبتي، لا تكترثي، سوف تزول بالغسيل. وقالت «سارة»:

– أ... أعتقد أنني تسببت في فوضى... هناك... وأشارت إلى الردهة خلفها، وأصدرت «إريكا» حركات تعبر عن ضيق صدرها، ولكن «جويل» أسكتها بنظرة منه، وقال:

– لا تكترثي يا محبوبة... سوف يعني «هيرون» بما حدث.

– سوف أعنى أنا بها، أين أجد مواد التنظيف؟ وقال بنغمة متصلبة:

– قلت إن «هيرون» سيعنى بذلك، لدينا مسائل أخرى نناقشها يا «راشيل»! وعلقت «راشيل»:

– ليس الآن، ألا تظن أنك قد قلت ما فيه الكفاية؟ وقالت «إريكا»:

– إنني أؤيد ذلك! ولكن «جويل» قاطعها قائلاً:

– اخرسي! واتجه إلى حيث كانت «راشيل» تقود «سارة» نحو الباب، وهو لا يكاد يحفظ توازنه:

– «راشيل» إلى أين تذهبين؟

– أعتقد أن إجابة السؤال واضحة، إنني أعود بـ«سارة» إلى البيت، تصبح على خير يا «جويل»، وأنت يا آنسة «غراي»! وصاح «جويل»:

– «راشيل»! كانت «راشيل» تستحث «سارة» عبر الباب، ولم تكن لديه القوة لمنعها

من الخروج، وفي اليوم التالي كانت «سارة» قد شفيت تمامًا من الدوار، مما طمأن أمها. وكانت السيدة «تالبوت» تنتظر «راشيل» عند عودتها وقالت في اعتذار:

– آسفة يا سيدة «غيلمور» لأنني تأخرت.. واصطنعت «راشيل» الابتسام.. وقالت:

– كلا، ولكن المسألة تبدو غريبة نوعًا ما، امرأة راشدة تحتاج إلى حاضنة تعنى بها! وتغير لون السيدة «تالبوت»، وقالت:

– أوه! لا أعتقد أن السيد «كنغدوم» ينظر إلى الموضوع هكذا، ولكن «لندن» يمكن أن تغدو مكانًا مخيفًا لمن لم يعتد الحياة فيها. وتمنت «راشيل» لو أخبرت مديرة المنزل بأنها سبق أن عاشت في «لندن» لسنوات في وقت كانت فيه أكثر جاذبية مما هي الآن، ولكنها قررت ألا تفعل ذلك، ودق جرس الهاتف، وذهبت «راشيل» لترد على المكالمة. كانت تتوقع أن يكون المتكلم «جيمس»، لكنها سمعت صوت «جويل» يقول:

– «راشيل»! «راشيل»! هذا أنتِ؟ ونظرت «راشيل» بارتياك إلى السيدة «تالبوت» التي كانت تخرج خيطان الصوف من حقيبتها، وواصلت المحادثة:

– ماذا تريد؟

– أريد أن أراكِ.. ولهثت «راشيل»:

– «سارة»..

– «سارة» في المستشفى، وقد تأكدت من ذلك، أوه! إنني أعرف أن السيدة «تالبوت» عندك، ولكنك لست سجينة، بإمكانك أن تخرجي.

– لا يمكنني ذلك.

– إذًا أحضر إليك.

– لا تكن مخبولاً!

– وإذًا؟ وفكرت «راشيل» في يأس:

– هل أنت في الفراش؟

– لا، لكن هل لذلك أي دخل في الموضوع؟

– نعم، لأنني عندئذ لن أحضر. وكان «جويل» يبدو ساخطًا، وقال:

– حسنًا، لست في الفراش، وفضلاً على ذلك «هيرون» هنا.

– وكيف أعرف؟

– هل تريدين التحدث إليه؟

– لا! (ونظرت مرة أخرى إلى مديرة المنزل) وماذا عن «إريكا»؟

– اتركي لي «إريكا» يا «راشيل»!

– حسنًا. كان يسعدها أن تخرج من الشقة، وكان «جويل»مريضًا وليس هناك ما يخيفها، وأعادت «راشيل» السماعة إلى مكانها، وكادت تخرج عن صوابها عندما رن الجرس فجأة للمرة الثانية ورفعت السماعة، وقالت:

– نعم؟

– «راشيل»؟ كان الصوت صوت «جيمس»، وواصل الكلام يقول:

– أين كنت إذًا؟..

– ماذا تعني؟

– مضى وقت طويل وأنا أحاول الاتصال، وفي هذا المساء اتصلت مرة فلم يجبني أحد، وفي المرة الثانية كان الخط مشغولاً، ما الذي يحدث؟!

– لا شيء يا «جيمس»! في الليلة الفائتة... «سارة» وأنا خرجنا لفترة، ولكنا عدنا بعد الثامنة بقليل.

– كان لدي اجتماع في الليلة الفائتة.. ولم أستطع الاتصال بعد السابعة والنصف، وعندما انتهى الاجتماع ظننت أنك في الفراش.

– أفهم. وبلعت ريقها بشيء من التشنج وأضافت:

– آسفة.

– وأين كنتِ الليلة؟

– كنت في صحبة «سارة» إلى المستشفى؟

– أليست السيدة «تالبوت» عندك؟ لماذا لم تجب؟ وتنهدت «راشيل»:

– حضرت متأخرة، آسفة إذا كنت قد أمضيت وقتًا فيه شيء من الإحباط.

– وأنا أيضا آسف، لكن منذ لحظة كان الهاتف مشغولاً، مع من كنت تتحادثين؟

وتعثرت الكلمات في حلقها، وصاح:

– ماذا حدث؟ ألا تريدين أن تتكلمي؟ وعرفت «راشيل» أن عليها أن تخبره، وصاحت:

– لقد كان المتحدث «جويل»، إذا كنت تصر على أن تعرف. وقال باقتضاب:

– ماذا كان يريد؟

– أوه، كذا، وكذا.

– هذه ليست إجابة يا «راشيل»!

– إنه يريد أن يراني.

– لماذا؟

– ليتحدث عن «سارة»، على ما أعتقد.

– هل عرف بحالتها المرضية؟

– نعم!

– أنا سعيد بأمانتك في هذا الخصوص؛ لأنني تحدثت مع «جويل» بنفسي وأعرف أنه علم بكل شيء.

– أفهم.

– ولماذا أخبرته؟

– هو اكتشف ذلك.

– من «سارة»؟ عندما أخذها إلى مسكنه؟ ونطقت «راشيل»، وهي تلهث:

– من خلال... الحديث.

– أعرف كل شيء يا «راشيل»... ولا جدوى من الكذب علي.

– لا أكذب عليك.

– من الأفضل ألا تفعلي ذلك.

– ما الحكاية يا «جيمس»؟ لماذا تتحدث بهذه الطريقة؟

– أريد أن أعرف ما كان يقوله «جويل»، وكيف سيكون تصرفك عندما يتم كل

شيء؟

– ماذا تعني؟

– لابد من أنك تعرفين أن «جويل» يريد أن يتبنى الطفلة!

– يتبنى «سارة»؟ أنا لا أعرف ذلك.

– ربما يكون ذلك ما يريد أن يتحدث إليك عنه. ومسحت «راشيل» بيد مضطربة على وجنتها، وقالت:

– ولكن.

– لم يكن واجبًا أن تخبريه أنها ابنته.

– ربما لم يكن يجوز لي ذلك.

– هل تريدين أن يأخذ الطفلة منك؟ وكادت تختنق وهي تقول:

– تعرف أنني لا أريد ذلك، إنني أحب «سارة» يا «جيمس»!

– أعرف أنك تحبينها، لكن من الأمانة أن تعرفي كيف يفكر «جويل».

– حسنا... لا تشغل بالك «يا «جيمس»! لن يأخذ «سارة»، سوف تجري العملية كما اتفقنا، وسوف نتزوج بمجرد أن تشفى. وساد الصمت لحظة، ثم قال «جيمس»:

– كنت أفكر في ذلك يا «راشيل»، أقصد في زواجنا، ألا تظنين أنه من الأفضل أن نتزوج قبل أن تتم عملية نقل الكلية لـ «سارة»؟

– قبل؟

– نعم، قبل، لو أننا تزوجنا يا «راشيل»، لكان لي الحق الشرعي في تبني «سارة» باعتبارها طفلتي. وضغطت «راشيل» بيدها على معدتها المضطربة، وقالت:

– لا أعرف يا «جيمس»!

– ولم لا؟ ما الفارق؟ فبعد أن نتزوج أدخل المستشفى وأجد أنا و«سارة» العلاج اللازم، وبعدئذٍ لن يوجد شيء يؤخر إقامتنا في هذا البلد. لم تكن «راشيل» تعرف كيف تجيبه، كان رأسها يدور، وكانت في حالة من الاضطراب والقلق، وقالت:

– «جيمس» لابد من أن أفكر.

– تفكرين؟ لماذا؟ هل كنت تنوين أن تغيري رأيك؟ وانفعلت «راشيل» بغضب

وقالت:

– لا! أنا لا أفعل ذلك.

– حسنًا.

– أوه «جيمس»! أعطني يومين لأقلب الموضوع على وجوهه، لم أكن أتوقع ذلك بهذه الطريقة المفاجئة.. وسكت، ثم قال:

– سوف أعود في خلال أيام ثلاثة يا «راشيل»، هل يمكنك أن تعطيني رأيك عندئذ؟ وزفرت «راشيل» زفرة تعبير عن الارتياح وقالت:

– أوه، نعم... أرجو ألا تكون غاضبًا يا «جيمس»! ورد «جيمس» بازدراء:

– لست غاضبًا، لا، لكن أشعر بشيء من خيبة الأمل، وأرجو أن تتذكري أنك تستفيدين من هذا... فعندما تصبحين زوجتي لن يستطيع إنسان أن يأخذ «سارة» منكِ. عندما وضع السماعة، التفتت «راشيل» إلى مديرة المنزل، وقالت:

– سوف أخرج لبعض الوقت يا سيدة «تالبوت». وبدا على السيدة «تالبوت» شيء من الدهشة، وقالت:

– تخرجين يا سيدة «غيلمور»؟! وأومأت «راشيل» بالإيجاب وقالت:

– نعم، ويعرف السيد «كنغدوم» بذلك. وأخذت تحاسب نفسها لماذا قالت هذا، لم تكن طفلة صغيرة لتحتاج أن تفسر حركاتها، وخشيت أن يكون الدور المرسوم لها في المستقبل أن تحاول دائمًا أن تجد الأعذار لتصرفاتها.

– حسنًا.. إذا كنتِ واثقة بذلك يا سيدة «غيلمور»! ولكن الساعة الآن بعد التاسعة.

– أعرف! واتجهت «راشيل» إلى حجرتها، ولبست سترتها الجلدية، ولم يكن القميص الأزرق كافيًا لوقايتها من البرد، ولكنها كانت تنوي أن تأخذ سيارة أجرة عند نهاية الممر، وأنزلتها السيارة أمام المبنى وحملها المصعد إلى الشقة، وضغطت على الجرس وانتظرت. لم يكن «هيرون» هو الذي فتح لها الباب، ولكنه «جويل» بنفسه. كان يقف بأدب إلى الداخل عندما رآها، وقال:

– ألا تدخلين؟ ورفعت «راشيل» بصرها في شيء من الشك، كان قدر كبير من

الإرهاق قد زال عن وجهه، وكانت عيناه فقط تعكسان قسوة الألم الذي يعانيه، لكن من الواضح أنه شفي بالفعل. وعلقت ببساطة، وهي تتوقف على الدرج الهابط إلى الغرفة:

– الحمد لله أنك أحسن. كانت الغرفة مضاءة بالمصباح، والستائر قد أزيحت لتكشف عن المنظر الشامل العريض لأضواء «لندن»، وواصلت «راشيل»:

– لماذا لم تقل لي ذلك؟ وإذن كان من الممكن أن نتقابل في مكان آخر. ورد «جويل»، وهو يهبط الدرج برشاقة أمامها:

– ولم ذلك؟ إن هذا المكان ليس أقل بهاء من أي مكان آخر، اخلعي معطفك، وتعالي نجلس، ماذا تشربين؟ هزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– ما الذي تريد أن تقوله لي؟ لننته من هذا أولاً! أحضر عربة المشروبات محملة بالزجاجات والكؤوس وقال في صوت هادئ:

– أنا وأنت وحدنا هنا يا «راشيل»، ولا داعي للعجلة. واتسعت عينا «راشيل» ونظرت تجاه الباب، وقالت:

– أخبرتني أن «هيرون» هنا. وتنهد «جويل»، وقال:

– حسنًا، إنه في غرفته، المهم أننا وحدنا، هل يرضيك ذلك؟ وبقيت «راشيل» حيث كانت، وقالت:

– أعتقد أنه لا طائل وراء هذا الكلام يا «جويل»! طلبني أبوك بالهاتف وأخبرني بأنه كان يحادثك. وحدق إليها بشيء من العبوس، وقال:

– «راشيل»! أستحلفك أن تأتي وتجلسي، لن أحاول أن أغويك، أو أرتكب شيئًا من الأشياء التي قد يوحي بها إليك تفكيرك، أريد أن أتحدث إليك. وأسرعت أنفاسها، وقالت:

– عن أي شيء؟

– تعالي واجلسي أولاً. وهبطت «راشيل» الدرج وجلست على طرف الأريكة، ولم تكن قد خلعت معطفها، وعندما قدم لها كأسًا به سائل عديم اللون، أخرجت يدها من جيبها لتتناول الكأس، وسألت:

– ما هذا؟

– عصير! قالت وهي تتناول الكأس:

– أشكرك. وعاد «جويل» ليجلس إلى جوارها على الأريكة، وقد اقترب منها بدرجة كانت تخشاها، وقال:

– والآن، ماذا قال لك أبي؟ هزت «راشيل» كتفيها في شيء من الارتباك، وقالت:

– فقط.. أنك تحادثت معه... كانت ملامح «جويل» تعكس الشعور بالمرارة وقال:

– فقط ذلك، لا شيء آخر، هل طلبك بالهاتف ليقول لكِ إنه كان يحادثني. وامتقعت بشرتها، وقالت:

– لا! كان لديه كلام آخر.

– مثل ماذا؟

– لا يحق لي أن أخبرك به. وبدت في صوته نغمة من الاحتقار، وهو يقول:

– هل أخبرك بأنني تحدثت مع الجراح الذي سوف يجري العملية؟ وهزت «راشيل» رأسها، وقالت:

– لا! لكن لماذا تحدثت إلى الدكتور «لوريمر»؟

– كنت أريد أن أعرف الحقائق. وصار يمعن النظر إلى السائل في كأسه، وقال:

– هل تعرفين أنها لن تنجح؟ وأحست «راشيل» بتقلص في عضلات معدتها، وقالت:

– ما هي التي لن تنجح؟

– عملية زرع الكلية، أنا لا أحبها.

– ما هي تلك التي لا تحبها؟ وصار وجه «راشيل» أكثر شحوبًا الآن، وتنهد وقال:

– لا تنشغلي هكذا، لو أن بإمكان أي شخص أن يجري هذه العملية فسوف يكون «لوريمر»، ولكن المسألة ليست هكذا، المهم النتائج التي تتبع ذلك. حدقت «راشيل» إليه وقالت:

www.rewity.com

– ماذا تعني؟ وهز «جويل» رأسه، وقال:

– «سارة» ما زالت طفلة.

– ولكن ذلك لن يغير من الموضوع شيئًا.

– دعيني أتم... «سارة» ما زالت طفلة، ونظرا لأنها تعاني هذه الحالة لفترة طويلة فقد تسببت في إعاقة نموها الجسمي قليلاً، ولحسن الحظ فإن الآثار ما زالت بسيطة، لكن إذا حدث زرع كلية شخص بالغ، فسوف تحتاج إلى نوع من العقاقير المثبطة لطرد الجسم لأي عضو غريب كي تبقى على قيد الحياة، وأنت تعرفين ما تصنعه هذه الأدوية المثبطة، إنها تعوق النمو. وأصابت «راشيل» قشعريرة، وقالت:

– أنا لا أصدقك، قال الدكتور «لوريمر» إن هناك فرصة كاملة لنجاح العملية.

– وسوف تنجح العملية من الناحية الفنية، لكن اطلبي «لوريمر» على الهاتف إذا كنت لا تصدقين ما أقول، واطلبي منه أن يشرح الموقف، أعتقد أن اهتمامك الأول موجهًا لأن تظل «سارة» على قيد الحياة بعد العملية، ولا أعتقد أنك فكرت فيما بعد ذلك.

– إنك تنسى أن «سارة» لا يمكن أن تعيش على الكلية الصناعية طوال حياتها، إنني أريد لها الفرصة لكي تعيش حياة عادية.

– وأنا مثلك.

– إذن، لماذا تحاول أن تخيفني وتقنعني بإلغاء فكرة زرع الكلية؟

– إنني لا أحاول أن أخيفك يا «راشيل»! كل ما أقترحه هو ألا تتعجلي ذلك، لقد تعودت «سارة» على جهاز الكلية الصناعية... وربما يكون من الأفضل أن تنتظري وتفكري... «راشيل»! إنني أريد صالح الطفلة أيضًا وأنت تفهمين ذلك.

– حقًا؟ حقًا تريد ذلك؟ ووضعت «راشيل» الكأس التي كانت تمسك بها على منضدة مجاورة، ونهضت ثم قالت:

– لماذا؟ لماذا؟ لتحرمني منها؟

– عم تتحدثين؟ ونهض «جويل»، ولكن «راشيل» أدارت ظهرها، وهي تقول:

– لا تحاول أن تنكر، أخبرني أبوك بما تسره.

– وهو؟ وكان صوت «جويل» باردًا للغاية، وانفرجت شفتا «راشيل» في شيء من المرارة:

– إنك تريد أن تتبنى «سارة»، وهذا ما هددت به في البداية، يا لك من شخص متغطرس! وشرب «جويل» ما بقي في كأسه وسقطت الكأس الفارغة على السجادة، وقال:

– إذًا، هذا ما قاله لك؟

– هل تنكره؟ وهز «جويل» كتفيه:

– وهل يغير شيئًا من الواقع... إذا ما أنكرت؟

– ماذا تعني؟ وهز «جويل» رأسه، وقال:

– لا أنكر أنني أريد أن أتبنى «سارة».. وقالت «راشيل» في شرود:

– هذا خبال.

– لماذا؟

– لأنك لا تشعر بأي حب تجاه الأطفال.

– على العكس، إنني أحب «سارة» كثيرًا.

– ولكنك كنت دائما تقول..

– إنني أعرف ما كنت أقوله دائمًا.. ذلك انتهى.. لقد كنت أبله يا «راشيل». وكانت تشعر بالصداع، وصاحت:

– لن أسمح بذلك. وبدت على وجهه علامات المرارة وهو يقول:

– لن تسمحي لي! كيف تمنعينني؟!

– بالزواج من أبيك. وسألها «جويل» باحتقار:

– هل هذا هو ما قاله؟

– ولنفرض أنه قال ذلك.. وهز رأسه، وقال:

– أوه يا «راشيل»... من إذن هو الأبله الآن؟ وردت في غضب وصدرها يرتفع ويهبط:

– لا تجرؤ على أن تسميني بلهاء!

– إنك تحبينني... ليتك فقط تعترفين بذلك!

– أنت؟.. (أخرجت ضحكة ساخرة)... إنني أكرهك! وتصلبت أصابع «جويل»، وقال:

– انتبهي يا«راشيل»... لا تغريني لأفعل بك ما كنت أريد أن أفعله منذ ست سنوات. وخارت قواها، وصارت تتوسل إليه، وهي في حالة من الإنهاك:

– دعني أذهب يا «جويل»... أرجوك... لم يعد بوسعي أن أحتمل أكثر من ذلك. كانت يدا «جويل» ترتعشان، وأنفاسه تختلط بأنفاسها.

– إنني أحبك... دعيني أحبك يا «راشيل»، لا تتركيني! وانتزعت نفسها، وواجهته وهي ترتجف بطريقة أفقدتها السيطرة على نفسها:

– أوه... نعم... أنت تريد أن تفعل ذلك، تريد أن تأخذ ما تريد لكي تحدث «جيمس» بفعلتك! وأثارها بقوله:

– «راشيل»، إنك تتحدثين لغوًا، بحق الله دعيني أشرح..

– لا أريد سماع أي شرح منك... يا «جويل»!

– «راشيل»... تعالي هنا! وحاول أن يمسك بها، ولكنها راوغته، وأسرعت تصعد الدرج، وخرجت من الباب قبل أن تنتظر المصعد. بدأت تجري هابطة الدرج، تدور معه دورة بدورة، وتهبط معه طابقًا وراء طابق، كان رأسها يدور، وساقاها تنضحان بالألم، هل كان يجد في أثرها؟ هل أخذ المصعد؟ أيكون قد سبقها إلى الطابق الأرضي، وبدا الدرج وكأنه لا نهاية له، ترى كم طابقًا لا يزال أمامها؟ ولم تكن تقدر أن بإمكانها أن تواصل الخطو، بدا الدرج وكأنه شيء غريب للغاية. لم تكن تتبين هل هي تتسلق درجات السلم أم تهبط عليها؟ كانت ترى هذه الدرجات صاعدة إليها. ومدت قدمها لتهبط الدرجة الأولى، ولكن لم يكن هناك شيء، وزلت قدمها، وهوت، وصارت تهوي... واصطدم ذراعاها وساقاها... آه... يا للألم... وراحت في نوبة من الإغماء.

* * * * *

– 10 –

وفتحت «راشيل» جفنيها على ضوء ساطع، ولم تكن تعلم أين هي؟ كان السقف فوقها بسيطا ومطليا بطلاء أبيض، بل كان اللون الأبيض ينتشر في كل مكان، وكان ذلك يؤذي عينيها. ونظرت بعينين طارفتين، وأحست بخفقان فوق حاجبيها، وصداع وآلام عديدة تنتشر في كل جسمها... كانت ترقد في سرير ضيق، وكان الفراش محكمًا حولها بطريقة لم تتح لها حرية الحركة، ودب الذعر في نفسها... وقبل أن يتحول ذلك الذعر إلى صراخ ظهر وجه بينها وبين الحائط الأبيض اللامع الذي يمتد أمامها. كان صوتا نسائيًا رقيقًا يقول:

– كيف حالك الآن يا سيدة «غيلمور»؟ حاولت «راشيل» أن تركز في الوجه المبتسم، لكن كان ذلك شيئًا بالغ الصعوبة، ولم تستطع أن تتعرف إلى ذلك الوجه، بل إنها لم تعرف ماذا على رأس تلك المرأة؟ طاقية... طاقية ممرضة! نعم كانت طاقية ممرضة! وصاحت في صوت يعبر عن الألم:

– «سارة»! أين «سارة»؟

– «سارة» بخير تام... المهم أنتِ... إننا قلقون عليكِ أنتِ! وأغلقت «راشيل» عينيها وغمرها للمرة الثانية نعاس عميق، وصارت تردد في شيء من اليأس:

– «سارة»... «سارة»... وفتحت عينيها للمرة الثانية، لم تكن الجدران تبدو كلها بيضاء، وقطبت وهي تحاول أن تفكر.. ماذا جاء بها إلى ذلك المكان؟ لماذا هي في المستشفى؟ وسمعت صوتًا يقول:

– السيدة «غيلمور»؟ كان الصوت صوت رجل، وكان الوجه يدل على أنه يميل إلى كبر السن، وبلعت «راشيل» ريقها، وقالت:

– ماذا أفعل هنا؟! وأشار الرجل الذي يلبس المعطف الأبيض إلى إحدى الممرضات من خلفه، لتقطر سائلاً بين شفتي «راشيل»، كان السائل منعشًا وكان مذاقه مقبولاً.

– والآن يا سيدة «غيلمور»... لا أريدك أن تتكلمي... كل ما أرجوه هو أن

تستريحي.

– أين أنا الآن؟

– أنتِ في المستشفى يا عزيزتي... ألا تذكرين أنك سقطت على الدرج... إلى الدور الأرضي. وقطبت حاجبيها ونشقت نفسًا مضطربًا، وتذكرت «جويل»... مسكن «جويل»! وأخذت تنطق بصوت باهت:

– «سارة»؟

– «سارة» بخير.

– أريد أن أراها.

– لا داعي لأن تثيري أعصابك يا سيدة «غيلمور». قالها الرجل بحزم، وهو ينحي عنها الفراش، ليمسك بمعصمها:

– غير مسموح لأحد بزيارتك الآن، سوف ترين «سارة» في الوقت المناسب.

– «سارة»، من يرعاها؟

– لقد فهمت أن أباها يتحمل المسؤولية. ولكن «راشيل» لم تكن تسمع، وحاولت أن تتحرك، ولكنها لم تستطع وبكت. كان الألم في رأسها يزداد حدة، أوه يالله، لماذا لا تستطيع الحركة؟ هل أصابها الشلل؟ كان عليها أن تفكر.. تفكر، ولكن التفكير كان مؤلمًا للغاية... كان وجه الرجل غامضًا... وكانت لا ترى من بعد إلا الظلام الحالك، وأصبح عليها أن تسأل... وومضت عيناها... تذكرت أن هناك شخصًا يجلس إلى جانب الفراش. أيمكن أن يحدث هذا؟... أين إذن ذهب الرجل ذو المعطف الأبيض؟ والممرضة؟ والرجل الذي يجلس إلى جانب الفراش لم يكن يلبس معطفًا أبيض، بل قميصًا وسترة جلدية، وكان يجلس في وضع يدل على الإعياء الكامل، وأحست بأصابعها بين أصابعه... وحاولت من باب التجربة أن تحرك أصابعها... وغمرها شعور بالشكر حين نجحت. وانتبه الرجل للحركة، ورفع رأسه يستطلع حالها، كان الرجل هو «جويل»، وعرفت ذلك في الحال رغم أنه كان يبدو مكتئبًا وقد أضناه التعب وأهمل لحيته فبدأت تطول، ونظرت بعينين طارفتين من جديد. كان الضوء الوحيد في الغرفة يأتي من مصباح إلى جانب الفراش، وكان الظلام

قد ساد ثانية، لابد من أنها نامت طوال النهار. قال وهو يتنفس باضطراب:

– «راشيل»، «راشيل»، هل أنتِ الآن متنبّهة؟

– أ... أعتقد ذلك. ثم أضافت:

– «جويل».. أين «سارة»؟ وأخذ يدها بين يديه، وقال يوجه إليها بعض النصيحة:

– «سارة» تجد الرعاية الكاملة، كل ما ينبغي أن تفكري فيه هو أن تتحسني أنتِ.

– متى أراها؟

– في القريب العاجل... وتململت وأحست بشيء ملفوف حول رأسها، وقطبت حاجبيها، ورفعت ذراعها الطليق، وصارت تتحسس رأسها. كان ملفوفًا بالضمادات، ولم تجد أثرًا للشعر الذي كان يتهدل طليقًا حول كتفيها، وأحست بما تعرضت له فروة رأسها من إصابة، واتجهت في ذعر صوب «جويل»:

– لماذا؟ لماذا ألبس هذه الضمادات؟ وسألها وهو يهز رأسه بينما عيناه تعبران عن التأثر البالغ:

– ألا تذكرين؟

– أعرف... أنني سقطت إلى الدور الأرضي... وأتذكر أنني أصبت في ذراعي وساقي. ورفع يدها إلى شفتيه وقال:

– كانت غلطتي.. كنت تهربين مني... أوه يا «راشيل»، كدتُ أُجَنّ طوال هذه الأيام الماضية... وحاولت «راشيل» أن تستوضح:

– الأيام الماضية! ماذا تقصد؟

– «راشيل»... مضى عليكِ، وأنتِ راقدة هنا حوالي أسبوع.

– أسبوع! ولكن... ولكن... ومد «جويل» يده وحاول أن يربت على شفتيها بإصبعه:

– لا تحاولي أن تتكلمي... لابد من أن أخبرهم بأنك صحوتِ... وحاول أن ينهض، ولكن «راشيل» أمسكت يده بإحكام، وقالت:

– ليس بعد... يا «جويل»! أرجوك أن توضح لي... كيف أمضيت هنا هذه المدة الطويلة؟ إنني لاأتذكر! وتنهد وهو يغوص في مقعده، وقال:

– كنت مصابة بالإغماء لعدة أيام يا «راشيل»... ثم... أجريت لك عملية جراحية.

– رأسي! أجريت لي عملية جراحية في رأسي؟ هل حلقوا شعري؟ كان الحزن قد بدأ يجثم عليها، ولكنه أخذ يهدئ من روعها وقال لها:

– اسمحي لي بأن أنادي الطبيب يا «راشيل». وقالت وصوتها يجهش بالبكاء:

– لا! حلقوا شعر رأسي؟ أجبني! حلقوه؟

– كان عليهم أن يفعلوا ذلك يا «راشيل»! كان هناك نزيف بالداخل، ولكنك سوف تتحسنين، وسوف ينمو شعرك من جديد، ويعود جميلاً كما كان. وانهمرت الدموع على وجنتيها، وذهب يطلب العون والمساعدة، وعندما ظهر الطبيب والممرضة الراهبة لم يكن «جويل» في رفقتهما. وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية، اقتنعت «راشيل» بأنها نجت من الموت بأعجوبة، وأن الرأس الحليق كان ثمنًا تافهًا دفعته إذا ما قورن بالشلل الذي كان يمكن أن يسببه نزيف المخ. كانت تشعر بهزال كبير، وكانت فاترة الهمة، وسألت عن «سارة» ومتى يمكن أن تراها وأين تقيم؟ ولكن الإجابات التي كانت تتلقاها كانت إجابات غامضة. ومضى يومان آخران حدث فيهما تغير كبير... كانت قد بدأت تأكل القليل من الطعام... واستطاعت أن تتكلم دون أن يعود عليها ذلك بالإجهاد... وبدأت تستند إلى الوسائد لتمتع ناظريها بحدائق المستشفى من خلال النوافذ العالية... وسألت الطبيب الذي جاء ليفحصها:

– متى أستطيع أن أرى «سارة»؟ ونظر إليها بشيء من التفكير قبل أن يجيب:

– لا تستطيعين أن تريها الآن يا سيدة «فيلمور»... لأن «سارة» في المستشفى أيضًا... هي الأخرى...

– تقصد أنها تحصل على جلسة العلاج بجهاز الكلية الصناعية؟

– لا! ليست في علاج، لكن أجريت لها العملية التي أردتِ أن تُجرى لها.

– ماذا تقول؟

– أجريت لـ«سارة» عملية نقل الكلية منذ أسبوع، وأعتقد أن العملية نجحت تمامًا.

– منذ أسبوع؟

– والآن أرجو ألا تجزعي بخصوصها، لا شيء يدعو إلى القلق، إنها في أيدٍ متخصصة أمينة.

– لكن... كيف أمكن أن تُجرى لها العملية دون وجودي؟ من أعطاهم الإذن بذلك؟

– إنني أعرف أنه في ظروف خاصة، عندما يكون هناك إذن مسبق، بأنه يسمح بإجراء العملية، ثم أليس لأبيها هذا الحق؟ وأدارت «راشيل» وجهها إلى الوسادة، وقالت في صوت مختنق:

– إذن، عاد السيد «كنغدوم» من «ألمانيا»...

– «كنغدوم»... لم أكن أعرف أن السيد «كنغدوم» ذهب إلى «ألمانيا». واستدارت «راشيل» وتنهدت... كان بالطبع يظن أنها تقصد «جويل كنغدوم»، وقالت بعبوس:

– لا يهم.. (وبدأت تفكر فيما قد يعنيه ذلك بالنسبة إلى «سارة»).. وماذا تقول؟ إيه.. العملية كانت ناجحة؟ لا أكاد أصدق ذلك. وابتسم الطبيب، وقال:

– هذا شيء طبيعي... إنني أفهم شعورك... لكن أحيانًا يكون من الأفضل أن يتم التصرف بهذه الطريقة... حسب اللحظة، هكذا، كانت ابنتك سعيدة الحظ للغاية، وأمامها الفرصة الآن لتستمتع بحياة عادية تمامًا.

– نعم... وزمت «راشيل» شفتيها:

– وأخيرًا تمت العملية! واستطاعت أن تخمن من الذي كان وراء ذلك؟ «جيمس كنغدوم». أجريت لها بالفعل عملية نقل الكلية، وكانت في طريقها للشفاء. بل لقد نجحت العملية، وأكد الطبيب ذلك، ومن المؤكد أن «جيمس» الآن سوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بألا يجد «جويل» أية فرصة للمطالبة بابنته. وخلال الأيام

التالية، كانت تتوقع أن يتصل بها «جويل» بطريقة ما، فمن المؤكد أنه كان يعرف مشاعرها نحو «سارة»، وربما يشعر بالشفقة تجاهها ويأتي ليخبرها بحقيقة حال «سارة»، وكيف كان رد فعلها لهذا الفراق الذي طال على غيبتها عن أمها، ولكنه لم يظهر، ودهشت عندما وجدت أن أول من حضر لزيارتها كان «إريكا غراي»... كانت تلبس بذلة ضيقة من «الكريب» الأسود، وكانت تحمل معها باقة من الورد والقرنفل، وكانت «إريكا» تحس بحرارة عنكبوت كبير جائع وقالت:

– أهلاً... يا «راشيل» ووضعت باقة الأزهار على الفراش وقالت:

– كيف حالك؟ وأومأت «راشيل» إلى المعرضة التي صحبت الزائرة، إيماءة طفيفة، بالانصراف وهي تقول:

– إنني أتماثل للشفاء. شكرًا، لماذا حضرت يا «إريكا»؟ ورفعت «إريكا» حاجبيها القاتمين، وقالت:

– هل بإمكاني أن أجلس؟

– إذا كان ذلك أمرًا ضروريًا، إذن اجلسي. وجلست «إريكا» باسترخاء، وقالت:

– ينبغي أن أقول لك إن «جويل» هو الذي طلب إليّ أن أحضر. وتوترت أعصاب «راشيل» وقالت:

– أوه، صحيح؟ وردت «إريكا» وهي تمسح على التنورة بيدها التي تلبس القفاز:

– نعم... لقد شغل بالعمل، كما تعرفين، ولكنه أراد أن يخبرك بأننا لم ننسك أو ننس «سارة». ولم تستطع «راشيل» أن تكبح جماح استجابة خرجت بطريقة آلية، وقالت:

– «سارة»؟

– نعم، «سارة»، أنت تعرفين بالطبع أن العملية أجريت لها.

– بالطبع.

– رتب لها «جويل» كل شيء.

– «جويل»؟

– لماذا؟ نعم! ألا تعرفين؟

– نعم... وصارت «راشيل» تندف بعصبية في غطاء السرير:

– هل رأيتها؟!

– بالطبع! إن «جويل» يراها كل يوم، وأنا أذهب معه كلما استطعت ذلك. ووضعت يدها على فمها، كأنها ندمت على ما قالت، وأكملت:

– «جويل» يحرص على أن يرى ابنته، لكن بالنسبة إليك فالأمر يختلف..

– لماذا جئتِ يا آنسة «غراي»؟ ما الذي تحاولين أن تقوليه لي؟

– قلت لكِ إن «جويل» طلب إليّ المجيء.

– لماذا؟ إنه يعرف أنني لا أهتم إذا ما حضر... أو لم يحضر! كانت عينا «إريكا» تحاولان أن تسبرا مشاعر «راشيل»، وقالت:

– آه، لكن هل تعنين ذلك حقًا؟ أنا وأنت نفهم ذلك بطريقة أصدق يا سيدة «غيلمور»... أليس كذلك؟ – لا أفهم ما تعنين...

– أعتقد أنك تفهمين... يمكن أن تحاولي أن تقنعي نفسك بأنك لا تكترثين، ولكنك لا تستطيعين الاقتناع بذلك... إنك تعرفين أنني وأنت نعاني المرض نفسه، وأنا أعرف الأعراض... ونشقت «راشيل» نفسًا عميقًا وقالت:

– إنك مخطئة يا آنسة «غراي»، إنني لا أشعر تجاه «جويل» إلا بالاحتقار، أما أنتِ... فهنيئًا لكِ به. وجعلت، «إريكا» أطراف أصابعها تتلامس مع بعضها البعض، وقالت:

– و«سارة»؟

– وماذا بالنسبة إلى «سارة»؟

– إنك تريدين أن تحتفظي بها؟

– بالطبع!

– إذًا، تزوجي «جيمس كنغدوم» يا سيدة «غيلمور»... قبل أن تفقديها تمامًا. صارت «راشيل» تحدّق إليها بدهشة، وقالت:

– وماذا يهمك في ذلك؟

– ألا تفهمين؟ أنا لا أهتم بالأطفال يا سيدة «غيلمور»... ولذلك فإن مجرد التفكير

في أنني أرعى طفلة في صحتها أو في مرضها شيء لا يروق لي... وإذا كان «جويل» مصممًا على أن يتبنى «سارة». ومالت برأسها جانبًا، وواصلت:

– لعلكِ تفهمين؟!

– ولكنه لن يتبنى «سارة»! ولن يستطيع ذلك!

– أنا غير واثقة بذلك، ومن الواضح أن «سارة» تهتم بـ«جويل»، وهو يهتم بها كذلك. وطأطأت «راشيل» رأسها، وقالت:

– إن تبني «جويل» لـ«سارة» مسألة غير مطروحة... سوف أتزوج «جيمس» حالما يشفى ويتمكن من الحركة ثانية. وظهر على «إريكا» بعض الاضطراب، وقالت:

– «جيمس»! يشفى ويستطيع الحركة ثانية؟ عن أي شيء تتحدثين؟ وأسندت «راشيل» ظهرها إلى الخلف إلى الوسادة، وتمنت أن لو انصرفت «إريكا» وتركتها وحيدة، كان ما يحدث فوق طاقتها، ولابد من أن بشرتها شحبت بعض الشيء، فقد انتصبت «إريكا» في جلستها، وقالت:

– «راشيل»! «راشيل»! هل أنت بخير؟ وعندما أفاقت «راشيل» تنهدت الراهبة «توماس» بقلق، وقالت:

– قلت للممرضة «هاربر» بألا تسمح للآنسة «غراي» بأن تطول زيارتها لأكثر من خمس دقائق... كيف تشعرين الآن؟ ووضعت «راشيل» يدها على جبهتها، وقالت:

– أشعر بدوار بسيط..

– لو كنت أعلم أن الآنسة «غراي» ستسبب لك هذا الضيق، لما سمحت لها على الإطلاق بزيارتك.. وحاولت «راشيل» بشيء من الجهد أن تنظر حولها، وهي تقول:

– الآنسة «غراي»... أين هي؟

– انصرفت، ولكنها تركت لكِ هذه.. ووضعت أمامها باقة الورد والقرنفل، وقالت:

– سأطلب إلى الممرضة أن تضعها في الماء. وردت «راشيل» على الفور:

– لا، لا، لا تفعلي أيتها الراهبة! خذيها بعيدًا، أعطيها لشخص آخر أو احتفظي بها إذا أردتِ... أنا لا أريدها.وقطبت الراهبة «توماس»، وقالت في شيء من الشك:

– أعتقد أن الآنسة «غراي» قالت إنها صديقة لك؟ وتململت «راشيل» عندما أحست بأن حالة الدوار قد بدأت تزول عنها.. وقالت:

– علاقتي بها مجرد معرفة.. لا أكثر من ذلك.. لا أريد أن أراها ثانية. وفي الأيام القليلة التالية، تحسنت حالة «راشيل» الجسمية بمقدار ما سمحت بها حالتها النفسية. كانت يوميًا تتوقع أن يزورها «جيمس»، وكانت تشعر بالحنين لرؤية «سارة»، ولكن مستشفى «ليدي مارغريت» حيث أجريت له فيه عملية نزع الكلية، كان يبعد عن مستشفى «سانت ماثيوز» بمسافة ما، وكان عليها أن تسلم بأنهما لن يتقابلا إلا بعد شفاء «سارة»، وعندما أحست بقدرتها على الإمساك بالقلم والورق كتبت إلى ابنتها رسالة. وجاءها الرد على هيئة رسالة قصيرة كتبت بخط إحدى الممرضات على أغلب الظن:

«عزيزتي ماما... أسفتُ عندما علمتُ أنك أيضًا مريضة، وإنني أفتقدك كثيرًا، ولكن «جويل» زارني، وأخبرني بأنك تتحسنين، وجاء السيد «كنغدوم» ليزورني كذلك، ولكنني...» أما باقي الجملة فلم يكن واضحًا، ومع ذلك استطاعت «راشيل» أن تقرأ الكلمات: «لا أحبه». وتنهدت «راشيل»، وواصلت قراءة الرسالة:

«لا أعتقد أنه في رقة «جويل»». وأيقنت «راشيل» أن «سارة» لن تتقبله وواصلت:

– ويقول الدكتور «لوريمر» إنني سوف أستطيع الخروج من المستشفى في القريب العاجل، وعندئذٍ سأحضر لأراك، اقبلي المزيد من حب «سارة». وأحست «راشيل» بالدموع الساخنة خلف عينيها، وهي تعيد قراءة الرسالة، وخطر لها: هل يمكن أن يكون «جيمس» أخبر «سارة» بشيء عن زواجهما القريب؟ ألهذا قالت «سارة» إنها لا تحبه؟ وأعادت «راشيل» الرسالة إلى المغلف.. لو أن «جيمس» زار «سارة» فلابد من أنه آتٍ قريبًا. وفي اليوم التالي، في فترة ما بعد الظهر، دخلت الراهبة «توماس» إلى حجرة «راشيل»، وقد بدا عليها شيء من الاستغراق في التفكير، وقالت:

– هناك زائر آخر يا سيدة «غيلمور».. هل تريدين مقابلته؟

– أوه! نعم! إنه... ووضعت يدها على رأسها المربوط بالضمادات، وقالت:

– هل أبدو في منظر غير مقبول؟ ولكن الراهبة «ثوماس» ابتسمت ابتسامة فيها شيء من اللوم.

– أفهم أنك تهتمين برأي السيد «كنغدوم» فيكِ، ولا يمكن أن ألومك على ذلك فهو رجل جذاب، ولقد شُغل به عدد كبير من الممرضات آخر مرة كان فيها هنا! وبينما كانت الراهبة «ثوماس» تتجه إلى الباب نادتها «راشيل»:

– انتظري! انتظري دقيقة... السيد «كنغدوم» هذا، هل هو شاب صغير؟ وقطبت الراهبة «ثوماس»، وقالت:

– ألا تعرفين؟

– بلى! بالطبع، لكن هناك اثنان بالاسم نفسه... هل أعطاك اسمه، اسمه الأول؟

– لم يكن محتاجًا إلى ذلك... فأنا أعرفه بالفعل... إن «جويل كنغدوم» ليس مجهولاً في الأوساط التي تقدر العمل الفني.

– أوه! أفهم الآن، لا أريد أن أراه... أرجوكِ أن تطلبي منه الانصراف. وقالت الراهبة «ثوماس» في دهشة:

– أ أطلب إليه أن ينصرف يا سيدة «غيلمور»؟ لكنه هو المسؤول عن إدخالك إلى المستشفى، وعن توفير أقصى درجة من العناية لحالتك... إن الدكتور «فريزر».. (وذكرت اسم الجراح الذي قام بإجراء العملية) هو أشهر إخصائي في الجراحة الداخلية للتجويف العظمي للرأس، وكان يقيم في المستشفى ليل نهار حتى شفيتِ من العملة، ألا تشعرين أنك مدينة له وهو الذي رتب كل شيء؟ وأصرت «راشيل» ألا تنظر إليها، وقالت:

– آسفة... ولكنني لا أود أن أراه.

– لكن يا سيدة «غيلمور».. ورفعت «راشيل» بصرها إلى أعلى، وقد ظهرت حمرة على وجنتيها، ولمعت عيناها، وقالت:

– هل أنا مضطرة إلى مقابلته؟ هل هذا شيء ملزم هنا؟ وتنهدت الراهبة «ثوماس»

وقالت:

– إنك تعرفين أنه ليس كذلك. وهزت الممرضة رأسها، وأضافت:

– وهو كذلك إذا لم تغيري رأيك.

– لن أغير رأيي، أرجو أن تخبريه بأنني عارفة بالجميل لكل ما صنعه، لكن لا فائدة، ليس بيننا ما يقوله أحدنا للآخر. كانت تظن أن «جويل» لن يقبل بذلك، وأنه ربما يغضب، ويندفع إلى داخل الحجرة ليستطلع ما يجري، ولكنه لم يفعل، ومن جهة أخرى أحست أنها تحتاج إلى البكاء، ووبخت نفسها. كان «جويل» قد أوضح موقفه تمامًا، كان مصممًا على أن يأخذ «سارة» منها، وكان «جيمس» فقط هو الذي يقدم البديل، وحاول «جويل» في الأسبوع التالي ثلاث مرات أن يرى «راشيل» دون أن ينجح في ذلك، وكانت في كل مرة ترفض زيارته تحس كأنها ترفض جزءًا منها، وكانت لا تفكر في «جويل» إلا بوصفه الرجل الذي يريد أن يأخذ منها «سارة»... وكانت تحدث نفسها أن أي ارتباط وثيق بالرجل الذي أحبته بجنون، والد طفلتها.. كان من الممكن أن يؤدي إلى نتائج مدمرة، ومع ذلك فإنها لم تكف عن حبه، وخطر لها أنه كلما أسرع «جيمس» بالزواج بها وأبعدها عن فلك «جويل» كان ذلك خيرًا لها. وأحست بالارتياح الغامر عندما جاءت الراهبة «ثوماس» بعد ذلك بأيام لتعلن نبأ قدوم السيد «جيمس كنغدوم» لزيارتها. كانت قد غادرت الفراش لتجلس على كرسي إلى جوار النافذة تقضي بعض الوقت في القراءة، ورفعت بصرها في فضول وهي تضع يدا مضطربة على ضماداتها، وقالت:

– سوف أراه... دعيه يدخل. كان «جيمس» كما تعودت أن تراه، لم يطرأ عليه أي تغيير. كانت تتوقع أن ترى آثار العملية الجراحية بادية عليه، لكن لم يكن هناك أي أثر، ودلف إلى حجرتها ببطء، وهو يبدي إعجابه بقامتها الرشيقة وردائها الأزرق الناعم، وكان يركز عينيه في وجهها الشاحب، وقال:

– حسنا يا «راشيل»... ما الذي فعلته بنفسك؟ ولم يحاول أن يقبلها، وكانت مسرورة بذلك... وأشارت إلى الكرسي المقابل لها وطلبت إليه أن يجلس... وجلس... وصارت تتأمل الورد الذي أحضره، وعبرت عن سرورها به فقالت:

– إنه جميل! كان «جيمس» ينظر إليها في شيء من الغرابة، وقال:

– كيف حالك يا «راشيل»؟

– أوه! إنني بخير... أحسن بكثير... وقال الدكتور «فريزر» إنه سيكون بوسعي مغادرة المستشفى خلال أيام قليلة.

– صحيح؟ ومن الذي سوف يهتم بشؤونك؟ واحمر وجهها، وقالت:

– سأحاول..

– هل رأيت «سارة»؟

– لا، لكنني أتوقع أن أراها في القريب العاجل. سكتت لحظة وقالت:

– «جيمس»! لم أقدم لك الشكر بعد.

– تشكرينني؟

– بالطبع! أقصد لما بذلته في إنجاز العملية الجراحية، وآسفة لأن دخولي المستشفى أدى إلى تأجيل شيء آخر، أليس كذلك؟ وظل «جيمس» ينظر إليها بثبات لعدة دقائق، وقال:

– أنت لم تري «جويل» بعد؟

– نعم! لم أره منذ تلك الليلة التي أجريت لي فيها العملية، وعلمت أنه هو الذي أحضرني هنا.

– نعم! لقد فعل ذلك! ماذا كنت تفعلين وأنت تهبطين على عجل درج المبنى الذي يقيم فيه «جويل»؟

– ألم يخبرك هو بذلك؟ أعتقد أنه لم يفعل، أو أنك لم تسأل؟ وقع بيننا شجار حول رغبة «جويل» في أن يتبنى «سارة».

– ولا يزال ينوي ذلك..

– أعرف، ولكنك لن تسمح الآن بأن يحدث شيء من هذا، أليس كذلك يا«جيمس»؟ لقد وعدت بذلك! وتوقفت عن الكلام، وبدا «جيمس» كأنه يحس بشيء من تأنيب الضمير، وقال:

– هل تقصدين أنك تريدين أن نتزوج بأسرع ما يمكن؟ وأومأت «راشيل» بالموافقة،

وقالت:

– كان هذا ما اتفقنا عليه!

– فعلاً، كان هذا ما اتفقنا عليه!

– إنني أريد أن يتم كل شيء لنضع حدًا لهذا الموضوع... أريد أن يكون لـ«سارة» بيت صالح وأبوان صالحان... وبإمكانك أن توفر لها هذا يا «جيمس»... ونهض «جيمس» على قدميه، وأخذ يذرع الغرفة وهو مستغرق في التفكير:

– أعتقد أنه من الممكن أن نتزوج هنا... في المستشفى... ومن الممكن أن نعد الترتيبات اللازمة... عندئذ أخذت «راشيل» تتحسس شفتيها بأصابعها في شيء من التفكير، وهي تقول:

– في المستشفى؟ ولكن مظهري سيئ للغاية. وعلق «جيمس» على ذلك:

– أنا لا أرى أية غضاضة في ذلك. وحاولت «راشيل» أن تفكر بطريقة منطقية، وارتأت أنها إن تزوجت بـ «جيمس» فلن تكون هناك فرصة للعودة، وكان الخاطر مزعجًا، لكن لو أرادت أن تحتفظ بـ«سارة»...

– حسنًا... إذا كان بإمكانك أن تفعل ذلك.. وحاول «جيمس» تأكيد عزمه على التنفيذ في قليل من غطرسته المألوفة:

– أوه، سوف أفعل... وسألته وهي تحاول أن تركز في الطفلة:

– هل رأيت «سارة»؟ وأخذ «جيمس» يتفحصها عن كثب لعدة لحظات، كأنه يريد أن يسبر دوافعها للسؤال، وأجاب:

– إنها بخير تام.. لقد حقّق زرع الكلية نجاحًا كبيرًا... كانت «راشيل» تشعر بالإنهاك، ومع ذلك قالت:

– إنني مبتهجة للغاية! هل هي حقًا بخير؟ متى تحضر لتراني؟ ونظر إليها «جيمس» مرة أخرى بإحدى نظراته الصارمة، وهو يقول:

– في القريب العاجل... سوف أعد الترتيبات اللازمة لكي تقيم السيدة «تالبوت» في الشقة وتعنى بها.

– أوه! هل تفعل ذلك؟ أنه من حسن التدبير... وإذن فلا بأس أن أتحمل الانتظار،

رغم أنه قد مضى وقت طويل لم أرها فيه... وقال «جيمس»:

– نعم! وعاد إلى كرسيه وجلس ثانية، وصار يتفرس فيها وقال:

– «راشيل»! أريد أن تعديني بشيء. وردت وهي تنظر إليه بشيء من الشك:

– وما هو؟

– أريد أن تعديني أنه إذا ما حاول «جويل» الاتصال بك، فسوف تثابرين على رفضك لرؤيته.

– حسنًا، إذا كان هذا هو قرارك.

– إنه كذلك! أنا لا أريد أن يسبب لي المتاعب، وأعتقد أنه فعل ما فيه الكفاية، سواء في هذه المرة، أو في المرات الأخرى... كان اليومان التاليان منهكين للأعصاب بدرجة بالغة... كانت في بعض الأوقات تخشى أن يظهر «جويل» ليواجهها بنياته، وفي أوقات أخرى تجد أنها تعاني الضيق والحيرة، فهي تخشى أن تتأذى «سارة» نتيجة لإجبارها بالقوة على مفارقة الرجل الذي بدأت تعنى به– ربما كانت هي، «راشيل»، الإنسان– الأنانية، التي تنكر على ابنتها حقها في الاختيار، بل ربما كانت تخشى أن تختار «سارة» البقاء مع أبيها. وفي اليوم التالي في فترة ما بعد الظهيرة جاءها زائر آخر، كان الطبيب قد أزال الضمادات عن رأس «راشيل» في اليوم السابق، ولم يترك سوى شريط لاصق سميك فوق الجرح، وكان شعرها النابت حديثًا بزغبه القضي قد بدأ يغطي فروة رأسها، ووفرت لها المستشفى شعرًا مستعارًا يتناسب مع لون شعرها، ولكنها كانت حساسة نحو ذاتها بطريقة شديدة، ولم تكن قد استجمعت بعد الشجاعة الكافية لتلبسه فوق رأسها... وكانت تحس بأن الضمادات الملفوفة على رأسها أكثر قبولاً من ذلك الشعر المستعار كانت الراهبة «ثوماس» تبدو مبتهجة عندما أخبرت «راشيل» بمقدم الزائر الجديد، وأكدت لها في شيء من التسامح، وهي تقدم لها الشعر المستعار، والمرآة لترى صورتها وهي تلبسها:

– إنه شخص أثق بأنك تتمنين رؤيته. وقامت «راشيل» بتثبيت الشعر المستعار، ونظرت إلى نفسها في المرآة، وسألت وهي تعيد المرآة إلى الراهبة «ثوماس» من

جديد:

– ومن يكون؟ أرجو ألا يكون «جويل كنغدوم»! وهزت الراهبة «ثوماس» رأسها، وقالت:

– لا، انتظري دقيقة! سوف أحضرها لكِ! وقبل أن تبدي «راشيل» أية معارضة بحجة أنها لم تعلن بعد عن موافقتها على رؤية الزائر، خرجت الراهبة «ثوماس»، وعادت بعد ثوان قليلة، ومعها جسم صغير يثب على الأرض في ثوب قطني خشن أحمر اللون، وقميص أبيض بسيط، لها شعر قاتم ناعم يتمايل حول وجهها الصغير المضطرب... ولم تكن «راشيل» تصدق عينيها، وقالت:

– «سارة»! وأسرعت تحتضن ابنتها بين ذراعيها، وهي تردد والدموع في عينيها:

– أوه! لا تعرفين كم أحس بالسعادة وأنا أراك الآن! وانسحبت الراهبة «ثوماس» بلباقة، وبقيتا لعدة دقائق ملتصقتين، وأخيرًا جذبت «راشيل» «سارة» نحو أحد الكراسي، وجلست، ووضعت الطفلة على ركبتيها، وقالت:

– إنك على ما يرام! هل تحسين بأي ألم؟ وأجابت «سارة» في شيء من اللامبالاة:

– إنني بخير تام، ولن أستخدم ذلك الجهاز بعد الآن. وحركت «راشيل» رأسها في استسلام، وقالت:

– لا.. أفهم ذلك.. أوه.. «سارة»... لقد افتقدتك كثيرًا! وقالت «سارة» وهي تربت بيدها وجنة أمها:

– وأنا أيضًا.. لقد كان كل شخص رقيقًا معي للغاية... وجاءني العديد من الهدايا واللعب، وأحضر لي «جويل» العديد من اللعب، وكان يقول إن بعضها منكِ.

– حقًا؟ ترنح قلب «راشيل»، وحاولت أن تسيطر على صوتها المرتعش، وهي تضيف:

– وهل رأيت العم «جيمس» كذلك؟ وجعدت «سارة» أنفها، وقالت:

– أوه! نعم، ولكنه أحضر لي فقط علبة موسيقية من «ألمانيا».

– لكن يا «سارة» نحن لا نحكم على الناس بما يحضرونه من الهدايا.

– أعرف، ولكن «جويل» يقول إنه يحبني... ويقول إنه يريد أن أكون فتاته الصغيرة. وتقلصت عضلات معدة «راشيل» بشكل سبب لها الألم، وقالت:

– وماذا قال العم «جيمس»؟

– لا أتذكر... أنا لا أحب ذلك الرجل. وهزت «راشيل» جسد «سارة» بعض الشيء، وقالت:

– «سارة»! أرجو ألا تقولي شيئًا مثل هذا... وفضلا على ذلك فإن العم «جيمس» لم يكن يستطيع أن يأتي ليزورك مثلما فعل «جويل»، فقد كان هو الآخر بالمستشفى، أرجو أن تتذكري ذلك!

– لماذا؟

– أنت تعرفين... فقد أعطاك العم «جيمس» إحدى كليتيه لتغدو صحتك على ما يرام.

– لا! هو لم يعطني شيئًا، الذي أعطاني هو ذلك الولد الصغير... الذي مات!

ووقعت «راشيل» في حيرة كاملة:

– ماذا تقصدين بالولد الصغير الذي مات؟ وهزت «سارة» رأسها، وقالت:

– الولد الذي صدمته السيارة... كانت حادثة مؤسفة للغاية... ولكن الدكتور «لوريمر» قال: الله هو الذي يحسم هذه الأمور! وليس الإنسان! لم تكن «راشيل» تفهم شيئًا مما تقول، وسألتها:

– عم تتحدثين يا «سارة»؟ وزفرت «سارة» زفرة تعبر عن الحنق وقالت:

– يا ماما... ألا تفهمين؟ لقد شرحت لكِ... صدمت السيارة طفلاً بالقرب من المستشفى في الليلة التي وقع لك فيها الحادث. وقال «جويل»: الأطباء كانوا يبحثون عنك في كل مكان، ما عدا المستشفى! وقهقهت «سارة» عندئذ، وبدأت «راشيل» تدرك ما حدث، وقالت:

– تقصدين أنك حصلت على إحدى كليتي هذا الولد الصغير؟

– هذا هو ما قلته بالضبط. مدت «سارة» إصبعها إلى أسفل ذقن «راشيل» تداعبها، وأكملت:

– ألم يخبرك «جويل» بذلك؟ وحولت «راشيل» بصرها بعيدًا عن «سارة»، وقالت:

– لم أر «جويل»!

– لم تشاهديه؟ ولكنه حضر لزيارتك؟ كان يريد أن يخبرك بعزمه على أن يجعلني فتاته الصغيرة. وأزاحت «راشيل» «سارة» عن ركبتها، ونهضت على قدميها في شيء من عدم الاتزان، إذ بدأت فجأة تدرك مغزى أشياء عديدة... ما ذكرته «إريكا» من أن «جويل» هو الذي أعد الترتيبات الخاصة باستزراع الكلية، اضطراب «إريكا» عندما سمعت «راشيل» تذكر عرضًا أن «جيمس» كان في المستشفى، وفوق ذلك شك «جيمس» عندما حضر ليزورها أول مرة... ذلك الشك الذي زال عنه عندما أدرك أنها لاتعرف شيئًا عن الحقيقة الكاملة... واضطربت دقات قلبها... ألهذا اقترح عليها أن يتزوجا في الحال؟ في المستشفى؟ لابد من أن الأمر كان كذلك... وأكد لها ذلك أيضًا، حرصه على ألا ترى «جويل»، وأخذت تلهث بعمق، كان الذعر يعتمل في نفسها كأنه قوة دافعة... لو أن «سارة» لم تحضر إليها... ولو أنها لم تعرف الحقيقة. لتزوجت «جيمس» دون مقابل... لكن، ألم يكن في ذلك شيء من القسوة على «جيمس»؟ لم يكن الذنب ذنبه عندما أتيح لـ«سارة» أن تحصل على كليتها من شخص آخر! كان على استعداد لأن ينجز ما تعهد به من ترتيبات! ولكن الترتيبات لم تَعُد لازمة الآن! أم أنها كانت لازمة! وضغطت راحتيها على وجنتيها، ماذا كان تأثير ذلك كله فيها؟ كان «جويل» ينتظر، وكانت رغبته في تبني «سارة» ترفرف فوق رأسها، بل كان ذلك واضحًا في كل ما قالته «سارة» منذ دخلت الغرفة، وكانت أمامها الفرصة لتتزوج «جيمس» لو أرادت الاحتفاظ بالطفلة! لكن هل كان بإمكانها أن تفعل ذلك؟ ليس لمجرد أنها لا تحب «جيمس»... لو أنها لم تكن تحب رجلاً آخر، ليكن الأمر سهلاً، فهو مقبول في بعض جوانب شخصيته رغم قسوته، وربما عاشا في سعادة كاملة، لكن كان عليها أن تفكر في «سارة». إذ لم تعد صاحبة الحق المطلق في الاستئثار بعواطف الطفلة. كانت «سارة» خلال ذلك، تشد بقوة ردائها، وهي تقول:

– ماما... ما الخبر؟ والتفتت «راشيل» إليها في الحال، وقالت وهي تجذبها تجاه

الكرسي من جديد:

– لا شيء يا حبيبتي... تعالي واجلسي يا «سارة»، لدي ما أقوله لكِ، لابد من أن أشرح لكِ شيئًا.

– ماذا؟ يبدو عليكِ السخط، هل أنت غاضبة مني؟

– غاضبة منكِ! بالطبع لا. وعانقتها وقالت:

– لست غاضبة... أنا التي أرجو ألا تغضبي مني. وعبست «سارة» وقالت:

– ولماذا أغضب منكِ؟

– ماذا تقولين... إذا اعترفتُ لكِ أن «جويل» هو أبوك فعلاً؟ ولهثت «سارة»، وقالت:

– ولكن أبي مات!

– لا... لا... هو لم يمت... إنه حي...

– «جويل؟ وأومأت «راشيل» بالموافقة، وانفرجت شفتا «سارة» في دهشة، وقالت:

– لا أكاد أصدق! هو أبي حقًا؟ لكن كيف؟ ولماذا؟ ولماذا لا تعيشين معه إذن؟

– إنها قصة طويلة يا «سارة»! ولكنها ببساطة أن ماما وبابا وقع بينهما خلاف كبير وانفصلا، وأنتِ عشتِ معي، أما «جويل» فعاش في «لندن»...

– لكن، ألم يكن يحضر لزيارتك؟ وعضّت «راشيل» شفتها، فقد كان السؤال يبدو أكثر صعوبة مما ظنت، وقالت:

– لم يكن يستطيع ذلك، بل لم يكن يعرف شيئًا عنكِ.

– كيف؟

– أنت تعرفين من أين يأتي الأطفال؟ أليس كذلك يا «سارة»؟ رأيت النساء في القرية عندما كن ينتظرن أطفالاً.

– بلى... إن نمو الأطفال يحدث في بطون الأمهات.

– نعم... حسنًا... وأنا لم أكن أعلم أنك في بطني إلا بعد... بعد أن انفصلنا أنا وأبوكِ. وأشرق وجه «سارة»، وقالت:

– إذن، لم يكن يعلم شيئًا عني؟ حتى تقابلنا في الفترة الأخيرة... وبدت على وجه

«سارة» ابتسامة، وقالت بارتياح كبير:

– والآن يعرف ذلك، ولهذا يريد أن يجعل مني فتاته الصغيرة.

– حسنا... نعم! ورفعت «سارة» كتفيها بنشوة كبيرة، وقالت بصوت فيه شيء من الاحترام:

– أوه! يا له من شيء عظيم... وإذن نستطيع أن نذهب لنعيش في ذلك البيت الجميل الذي يطل على مدينة «لندن» من جميع الجهات... هل تعرفين أن لديه غرفة كبيرة معظم جدرانها من الزجاج... ويقوم فيها برسم اللوحات.

– يمكنك أن تذهبي لتعيشي معه إذا شئتِ يا حبيبتي... إنه يريدك، ولكنني لن أعيش معكما هناك.

– ولم لا؟

– من الصعب أن تفهمي... لكن حسنًا، فأنا و«جويل»... لا نتفاهم سويًا، وكذلك فإن لديه «إريكا»...

– أوه! تلك المرأة، أنا لا أريد أن أعيش معها. وردت «راشيل» في ثبات:

– سوف تعيشين مع «جويل»، وسوف تكونين فتاته الصغيرة، كما قلتِ، ألا تحبين ذلك؟

– من دونك؟ أنا لا أريد أن أتركك. وتنهدت «راشيل».

– لا داعي لأن تتخذي القرار الآن. وحبست الدموع الساخنة التي كانت تشتعل في عينيها، عندما لاحت لها فكرة،وقالت:

– وكيف حضرت إلى هنا... إذن؟ وجذبت «سارة» كتفيها، وقالت:

– أحضرني الدكتور «الوريمر». وزفرت «سارة» وقالت:

– إنه يريد أن يراكِ أيضًا.

– حقًا؟ مدت «راشيل» يدها إلى شعرها، وقالت:

– أعتقد أنه من الأفضل أن تطلبي إليه الدخول. ولمست «سارة» شعر أمها قبل أن تنزل من فوق ركبتها، وقالت:

– شعرك قد أصبح مختلفًا، لم يعد ناعمًا كما كان، أنا لا أحبه هكذا. واصطنعت

«راشيل» ابتسامة باهتة، وقالت:

– ولا أنا... إنه شعر مستعار... كان عليهم أن يحلقوا شعر ماما لإجراء العملية.

– تقصدين... أنك صلعاء... كانت «راشيل» تود ألا تسمع كلمة بهذه القسوة، وأومأت تقول:

– يمكنك أن تقولي ذلك.

– هل يمكنني أن أرى؟

– ليس الآن، اذهبي وقولي للدكتور «لوريمر» إنني أحب أن أراه الآن. وأخذت الراهبة «ثوماس» «سارة» لتشرب عصير البرتقال بينما كان الجراح يتحدث إلى «راشيل» عن الآثار التي يمكن أن تتبع العملية، وشرح لها نوع العلاج اللازم، وتأكد أنها فهمت تمامًا، وواصل الحديث معها، يقول:

– كانت «سارة» سعيدة الحظ للغاية، كما تعرفين يا سيدة «غيلمور»، لقد كانت فكرة استزراع كلية شخص راشد تتطلب قدرًا كبيرًا من العلاج، أما الآن فليس هناك ما يمنع على الإطلاق أن تحيا «سارة» حياة عادية تمامًا.

– كان السيد «كنغدوم»... «جويل كنغدوم».. يقول إن العقاقير المثبطة لأجهزة طرد الكلية المأخوذة من جسم شخص راشد، يمكن أن تؤثر في النمو الجسمي لـ«سارة».

– أعتقد أنه على صواب... وما زالت الأساليب الطبية المستخدمة في هذا الميدان محدودة نوعًا، ولكنها تتحسن... وعليَّ أن أوضح أن عملية استزراع الكلية في الأطفال ما زالت في مرحلة المهد، ومع ذلك فإنها تبدو مجالاً مثيرًا. وسكت لحظة ثم قال:

– كانت «سارة» تتقبل حياتها معنا، على ما أعتقد، رغم أننا جعلناها تقيم فترة أطول بقليل من اللازم بعد الحادث الذي وقع لكِ، حتى نتأكد أن كل شيء سوف يسير فيما بعد ذلك على ما يرام.

– الحقيقة أنني مدينة لك بالشكر والتقدير. وابتسم الدكتور «لوريمر» وهو يقول:

– لا تذكري ذلك... «سارة» طفلة فاتنة. ونظر إلى وجنتي «راشيل» الشاحبتين، وقال:

– أعتقد أن هذه الزيارة طالت أكثر من اللازم، وهي الزيارة الأولى، ويبدو أنك متوترة بعض الشيء ياسيدة «غيلمور»! لكن صدقيني، ليس هناك ما يقلقك، وجاء الوقت لكي تقولي وداعًا لـ«سارة». ولكن ذلك كان موقفًا مؤلمًا، وأحست الصغيرة بالقلق الذي كان يعتريها، وقالت وهي تهمس في شيء من الارتجاف:

– لا تقلقي يا ماما! لن أتركك.. كانت «راشيل» ترقد في تلك الليلة وحيدة في غرفتها... وساعد ذلك على إذكاء الوساوس، وفكرت إذا هي لم تتزوج «جيمس كنغدوم» فلن تكون قادرة على أن تقدم لـ«سارة» حياة تماثل ما يستطيع «جويل» أن يوفره لها، لكن، هل يكفي الحب لتعويض «سارة» عن ذلك؟ وبصفة خاصة أن «جويل» كان سيقدم لها الحب أيضًا؟ ومع بزوغ شمس الصباح، وصلت إلى القرار، كانت متعبة ولكنها كانت على شيء من العزم والتصميم، اقتنعت بأن وجودها بالقرب من «سارة» يمزق عاطفة الصغيرة، فلا يمكن لها بل لن تستطيع أن تختار «جويل»... ووجدت أنه من الأنسب أن تختفي من الساحة وتتيح لـ«جويل» الفرصة مع الطفلة لكي يعوض عن السنين التي عاشتها مع أمها فقط.. وربما تم اللقاء بينهم ذات يوم، وعندئذ تكون «سارة» قد كبرت فتقرر لنفسها، وكادت تجهش بالبكاء عندما تخيلت أن شخصًا آخر يعتني بشؤون «سارة»، يبدل لها ملابسها، وينظم شعرها بالفرشاة، ويعاونها على النوم، ويستمتع بالخصوصيات الدقيقة التي كانت تستمتع بها هي من قبل، وصممت على أن تنفذ قرارها مدفوعة بنوع من الالتزام الخلقي، سوف تنسى «سارة» التي ستندمج في حياتها بسرعة كما يفعل سائر الأطفال، وسوف يكون «جويل» معها ليعاونها، وليسري عنها، وليصحبها معه أينما ذهب. سوف تنسى خبراتها المؤلمة في الماضي، وسوف تستمتع بمستقبل مشرق وضّاء!

- 11 -

لا يزال هناك حاجز آخر ينبغي أن نتخطاه، ذلك الحاجز هو «جيمس كنغدوم»..

وكانت «راشيل» تعلم أن عليها أن تواجهه، وكان من حقه أن يعرف خططها للمستقبل، وعندما تستطيع أن تغادر المستشفى فسيكون عليها أن تتخذ الترتيبات اللازمة لكي تنتقل إلى مكان آخر غير «لندن»، ومضى يومان آخران قبل أن يظهر «جيمس»، وجاءت «سارة» لتراها من جديد، وكانت تصحبها في هذه المرة إحدى المرضات الشابات، وأحست «راشيل» بالارتياح عندما رأتها في حالة صحية طيبة، ولم تكن تكف عن الحديث حول... كيف أصبح «جويل» أباها... وعندما حان وقت الانصراف كانت أعصاب «راشيل» قد صارت مشدودة تمامًا، وفي الصباح التالي أخبرتها الراهبة «توماس» أن «جيمس كنغدوم» جاء ليزورها، وكانت «راشيل» قد نهضت من الفراش، وعندما دخل «جيمس» أجفل لرؤيتها، وقال:

– سوف يسعدك أن تعلمي أنني اتخذت كل الترتيبات... وسوف نتزوج خلال يومين من الآن. وعندئذ تحدثت «راشيل»:

– أوه! لا، لن نفعل ذلك، يؤسفني أن الموقف تغير يا «جيمس». وحملق إليها «جيمس»:

– ماذا تقولين؟ ماذا قال لك «جويل»؟

– لم يخبرني بشيء. وتجعدت شفتاها، وقالت:

– لماذا فعلت ذلك يا «جيمس»؟ كيف خطر لك أنه بإمكانك أن تمضي في هذا الأمر إلى آخره دون أن تفكر في عواقبه؟ وكان وجه «جيمس» يعكس الذعر الذي أصابه، وتحدث في صخب وعنف:

– أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثين؟

– أوه... نعم... إنك لم تعط «سارة» إحدى كليتيك، بل كنت في «ألمانيا» عندما أُجريت لها عملية استزراع الكلية، والذي تدين له «سارة» بشفائها هو طفل مسكين توفي... وأحكم «جيمس» قبضة يده وهو يقول:

– لم أقل إنني شاركت في عملية نقل الكلية... هل قلت لكِ ذلك؟

– ولكنك لم تقل إنك لم تشارك، ولا تنس أن «جويل» لا يزال يطالب بتبني «سارة».

– أعرف ذلك.

– وسوف أسمح له أن يفعل، لقد وقفت في طريقه بما فيه الكفاية يا «جيمس»، دون جدوى!

– «راشيل»! إنك لا تعرفين ما تقولين!

– بل أعرف، إنني لا أستطيع أن أحرمه من ابنته إذا كان حقًا يريدها..

– «راشيل»، إن هذا جنون!

– منذ جاءت «سارة» لتزورني يا «جيمس»...

– «سارة»! هل جاءت لتزورك؟ (وأحس بأنه يترنح) لكن كيف؟ إن «جويل» في «فرنسا»! كيف؟ كيف استطاعت إذن؟

– لقد أحضرها السيد «لوريمر» في أول مرة.

– وإذن هي التي...

– نعم.. كان ينبغي أن تدرك ذلك... «سارة» تعرف جيدًا كل ما يدور حولها... وصار «جيمس» يذرع الحجرة بشيء من القلق، وقال:

– لا أستطيع أن أصدق يا «راشيل»! هل فكرت فيما يمكن أن يحدث.

– «جويل» يريد الطفلة، ويريد أن يتبناها، لكن أعتقد أنه يدرك أنها تشبهني إلى حدٍّ كبير بحيث لا يمكن أن يستعديها على أمها.. وهز «جيمس» رأسه، وقال:

– سوف تندمين على ذلك.. وطأطأت «راشيل» رأسها، وقالت:

– من المحتمل يا «جيمس»، فذلك لم يكن قرارًا سهلاً! وقد يعني أنني أتركك... ولكنك تركتني أيضًا عندما حاولت أن تخفي عني الحقيقة، زواجي بك قد ينفي أي حق قد يطالب به «جويل»... ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك! لا أستطيع!

– سوف يذهب بها بعيدًا.

– قد يحدث ذلك بالفعل.

– اشترى بيتًا في «فرنسا»، وينوي أن يعيش هناك... وسوف يصفي عمله المربح هنا في «لندن». وصاحت:

– لا علاقة لي بهذا.. وأتمنى أن يعيش في سعادة كاملة. وحدّق «جيمس» إليها بوهن، وقال:

– يبدو أنكِ عقدتِ العزم بالفعل على ذلك.

– نعم...

– لعنة الله.. قالها «جيمس» واستدار صوب الباب، وخرج من الحجرة، وغاصت في كرسيها تلتمس فيه الهدوء، وكان كل ما بقي هو أن تتحسن صحتها بدرجة تمكنها من ترك المستشفى لتحزم متاعها وترحل، ولم تكن تنوي أن تخبر «سارة» برحيلها، وكان ذلك في رأيها السبيل الأفضل، لأنها لم تكن قادرة على مواجهة مشهد الوداع الذي ربما مزقها، وقررت أن تترك خطابًا لـ«جويل» يستطيع من خلاله أن يشرح الموقف لابنته، ابنته وليست ابنتها منذ ذلك الوقت فصاعدًا. خرجت «راشيل» من المستشفى بعد ذلك بثلاثة أيام دون الحصول على موافقة الدكتور «فريزر»، ورغم المعارضة الجدية من الراهبة «ثوماس» التي قالت:

– لقد أفلتِّ من الموت بمعجزة يا سيدة «غيلمور» ! ألا ترين أن المخاطرة بصحتك الآن فيها شيء من التهور. والتفتت إليها «راشيل»، وهي تلبس سترتها، وقالت:

– أشكر اهتمامك، لكن لابد من أن أخرج.

– وماذا عن «سارة»؟ هل تعتقدين أن المخاطرة بصحتك شيء في صالحها؟ وزمت «راشيل» شفتيها لتمنعهما من الارتعاش، وقالت:

– «سارة»... أوه... سوف تكون بخير... وسوف تعيش مع أبيها. وبدا على الراهبة «ثوماس» شيء من عدم الارتياح، وقالت:

– سامحيني يا سيدة «غيلمور»، ولكن زوجك لم يحضر بتاتًا ليعودك خلال المرض.

– ليس لي زوج... كل مالي هو ابنة واحدة، وكثير من الذكريات المؤلمة... وترددت بعض الشيء، وقالت:

– والد «سارة» هو «جويل كنغدوم»... والآن هل تفهمين؟ كانت الشقة باردة وموحشة عند عودتها، ولكنها أشعلت المدفأة الكهربائية حال عودتها، وفتحت علبة حليب (لبن)، وأعدت لنفسها فنجانًا من الشاي، كانت تنوي أن تقيم في الشقة ليلة واحدة، تقوم فيها بكتابة رسالتها إلى «جويل» وفي اليوم التالي تسحب نقودها من المصرف لتحجز تذكرة سفر إلى مدينة أخرى، وأحست بالإنهاك بعدما بذلته من جهد في صنع الشاي، واضطرت أن تجلس لتستريح قبل أن تشرع في حزم

متاعها، وفكرت أنه سيكون عليها أن تحجز غرفة في أحد الفنادق حتى تستعيد صحتها، وعندما دخلت مخدع «سارة»، أخذت تتلفت حولها وقد استولى عليها يأس غامر، كان كل مكان في الغرفة يذكرها بها، وأدركت أنها لن تكون قادرة على أن تصنع من حياتها شيئًا على الإطلاق إذا ما استسلمت باستمرار للعواطف، واستراحت في فترة ما بعد الظهر، وعندما حل المساء أحست بأنها أصبحت قادرة على حزم إحدى الحقائب، وفتحت أبواب خزانة الملابس، وصارت تتفرس في صفوف الثياب التي دفع ثمنها «جيمس»، لم تكن تريد أيًا منها، وكانت قطع الثياب التي قررت الاحتفاظ بها هي ملابسها الأصلية، وكانت نزوة سخيفة حقًا أن تلبس الملابس التي كانت ترتديها آخر مرة رآها «جويل». كانت في غرفة النوم تطوي السترات وتضعها في الحقيبة عندما انفتح الباب الخارجي للشقة، وسمعت شخصًا يدخل، واضطربت دقات قلبها لحظة، وساورتها كل المخاوف التي كانت تتضمنها قصص «جيمس» عن السكن في وحدة في مثل تلك الشقة، لكن عاودها التعقل عندئذ، كان هناك شخصان فقط بخلافها معهما مفتاح للشقة: «جيمس»، والسيدة «تالبوت». ونشقت نفسًا عميقًا، واتجهت إلى باب غرفة النوم بينما دخل الزائر الغريب إلى غرفة الاستقبال ليجدها، لم يكن «جيمس» ولم تكن السيدة «تالبوت». كان «جويل» هو الذي يقف أمامها، ورفعت يدًا مرتعدة إلى رأسها العاري وأحست بنعومة الشعر الجديد النامي، وخشيت أن يرى الرجل – الذي كان يحدق بمرارة إلى شخصها – منظرًا مزعجًا للغاية، واستطاعت في النهاية أن تجد القدرة على أن تنطق بالكلمات:

– «جويل» ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ورد «جويل» في نبرات ثائرة:

– «راشيل»! لماذا بالله تركت المستشفى يا «راشيل»؟ وامتد بصره إلى ما وراءها، إلى حقيبة الملابس المفتوحة على السرير، وقال:

– ما الذي تفعلينه، عليك اللعنة؟ كانت «راشيل» تود لو استطاعت أن تغطي رأسها بيديها، وكانت حساسة جدًا لمنظرها السيء، واستدارت تبحث عن الشعر المستعار الذي كانت قد ألقت به أمام المرآة.. ولكن «جويل» أمسك بكتفيها من الخلف، وأدارها نحوه لتواجهه، وأمسك بالشعر المستعار من يدها، وألقى به

جانبًا، وقال:

– أجيبيني يا «راشيل»! أريد أن أعرف. وأجبرت «راشيل» نفسها على أن تقول:

– دعني ألبس الشعر المستعار أولاً! واكتفى بأن هزها برقة، ودمدم بوحشية:

– أنا لا يهمني الشعر المستعار، ولا يهمني مظهرك يا «راشيل»! أخبريني بمَ تنوين فعله؟ وطأطأت رأسها، وهي لا تدري أنها جعلت خصل الشعر الناعم على مؤخرة رقبتها تتبدى لناظريه، وقالت:

– كنت... كنت أنوي الرحيل... أوه... ليس مع «سارة» و... كنت أنوي أن... أكتب إليك... لكن يغني عن ذلك أن أخبرك الآن... لا مانع عندي من أن تبقى «سارة» معك.

– ماذا؟

– بوسعها ذلك، وهي تريده، لقد قالت إنها لا تريد أن تتركني، لكن أعرف.. وعلق بحدة:

– تعرفين؟ أنت لا تعرفين شيئًا. وأطلقها فجأة لدرجة أنها كادت أن تسقط على الأرض، ولكنه أمسك بها ثانية بصرخة ألم مكبوتة، وجذبها وقال:

– أوه... «راشيل»! لا تذهبي... لا تتركيني! وعندئذ جذبت «راشيل» نفسها بعيدا عنه، وأخذت تحدق النظر إليه، وقالت:

– «جويل»... انتهينا من كل هذا...

– لا... لم ننته بعد. والتقت عيناه القاتمتان بعينيها، والتفتت «راشيل» بعيدًا، وقد أصبحت عاجزة عن النظر إليه دون أن تلقي بنفسها بين ذراعيه:

– لقد انتهينا... قلت لك إن بوسعك أن تأخذ «سارة»... وعندما تكبر بالدرجة التي تستطيع فيها أن تقرر لنفسها... فسوف أعود. ودمدم وهو يمسك بكتفيها، ويجذب ظهرها نحوه:

– لن أسمح لك بأن تفعلي ذلك! أوه! يا «راشيل»! أنصتي إلي... أنصتي إلي. وصاحت في شيء من اليأس وهي ترمقه، وتحس باستجابته الفورية لاقترابها منه:

– قلت إنك تريد أن تتبنى «سارة».

– أعرف أنني قلت ذلك... أريد أن أتبنى «سارة» بعد أن نتزوج فورًا... لم تكن «راشيل» قادرة على أن تصدق ما سمعته، وقالت:

– ماذا؟ «جويل»؟ وقال بصوت أبح:

– أرجوك بالله ألا تتحركي، فقط ابقي حيث أنتِ يا «راشيل»! إنك لا تعرفين كم يبدو هذا جميلاً!

– «جويل»! أنت قلت عندما نتزوج؟

– أعرف أنني قلت ذلك. وحاولت «راشيل» ألا يبدو عليها الاضطراب بدرجة كبيرة، وسألته:

– من أجل... من أجل «سارة». ورد بصوت أجش، وهو يحتضن وجهها بين يديه:

– لا! ليس من أجل «سارة» يا إلهي... يا «راشيل»... أنتِ تحتاجين إلى الإقناع، هل أنا أحتاج إلى أن أركع على ركبتي وأطلب يدك. وسألت:

– هل تقبل أن تفعل ذلك؟

– لو طلبتِ ذلك لفعلته... لابد من أن تشعري بشعوري نحوك.. إذ عبرت عنه في مرات عديدة. وحاولت «راشيل» أن تقتنع بما سمعت، وسألت:

– ولكن، ولكن... «إريكا»؟

– أنا لا أحب «إريكا»... ولم أحبها قط... ولقد قلت لك ذلك... إنني أحبك! ولقد أحببتك دائمًا... وعندما افتقدتك، تعذبتُ كثيرًا... صدقيني!

– ولكنني أظن أن والدك... قال...

– إن لوالدي حسابًا كبيرًا.

– ولكن «إريكا».

– أعرف، أعرف أن «إريكا» جاءت لتزورك، ولكنني لم أكن أعلم بتلك الزيارة، وكيف كان بإمكاني أن أعلم؟ وقد كنت في «فرنسا»، ثم رجعت، ورفضتِ أنتِ مقابلتي!

– كان بإمكانك أن تصمم!

– لا يستطيع الإنسان أن يصمم مع شخص مريض يا «راشيل»! ولقد كنت في حالة

www.rewity.com

سيئة، كنت مهيئا للانتظار، ولم أكن لأعلم أنك تقدمين على عمل جنوني مثل ترك المستشفى. وارتعد وقال:

– إنني لا أستطيع أن أتصور ذلك، لو أنني لم أعد، وأتجه إلى المستشفى، لكنت اختفيتِ ثانية! ونطقت وهي تضع يدها على صدره:

– كنت أظن أن ذلك ما تريده أنت..

– كيف؟ بعدما عبرت لك عن مشاعري بكل الطرق.

– كنت أعلم... أنك تريدني، لكن من قبل كنت تريدني أيضًا!

– إنني لم أكف قط عن أن أريدك، عليكِ أن تصدقيني! لو أنكِ رجعتِ، لعرفتِ.

– ولكنك لم تكن تريد الأطفال قط يا «جويل»! لقد قلت ذلك. وتنهد وقال:

– نعم، ربما أكون محتاجًا إلى أن أوضح لكِ شيئًا، كان ينبغي لأبي أن يخبرك به، لقد ماتت أمي بمرض الكلية.

– هل تعني؟

– نعم أعني... أنه إذا كان مرض «سارة» يرجع بشكل ما إلى الوراثة، فإن ذلك يعود إلى أسرتي أنا وليس إلى أسرتك.

– أفهم... وأغلق «جويل» عينيه لحظة، ثم فتحهما من جديد، وقال:

– أعرف أن هذا ليس عذرًا بالطبع عن الطريقة التي تصرفت بها، ولكن أبي كان قد تغير بعد وفاة أمي، كان كل شخص يقول ذلك، كان يحبها بطريقة جنونية، وأخذت على نفسي عهدًا ألا أحب امرأة بالطريقة نفسها، وكنت قد قررت أنه إذا حدث ووقعت في حب فتاة، فإنني لن أتزوج على أية حال، بل لن يكون لي أطفال منها حتى لا يهدموا العلاقة بيننا.

– أوه، «جويل»!

– إنني لا أشعر بالرضا عن نفسي عندما أفكر في المعاناة التي مررتِ بها وحدكِ، كان من الواجب علي أن أمنع حدوث شيء مثل هذا... لكن معكِ... ونظر إلى فمها في شيء من الإثارة:

– أنتِ تعرفين كيف بلغت العلاقة بيننا، ولم أكن لأريد أن أفسدها، ولكنني فعلت. ونطقت:

– أوه! يا «جويل»! أحبك! وعندما رفع رأسه في النهاية، كان يتنفس بطريقة مضطربة، وكانت عيناه تبدوان كما لو كانتا قد كُسيتا بطبقة رقيقة لامعة كما رأتهما من قبل، وقال:

– أوه! يا إلهي، يا «راشيل»! أرجوك ألا تتركيني أبدًا، لهذا أردت «سارة»، وليسامحني الله، لأنها ابنتك كما هي ابنتي، أحبها، لكن فقط لأنها تشبهك كثيرًا، قد يقول البعض إنها تشبهني، ولكنها تشبهك تمامًا. كانت سرعة التأثر التي يتحدث بها مثيرة للغاية، وحاولت «راشيل» بجهد كبير أن تتحدث عن أشياء تنتمي بطريقة أكثر إلى الأمور الواقعية:

– إنك لم تحضر لتزورني بعد العملية، لماذا؟ لماذا أجلت زيارتك لي إلى ما بعد زيارة «إريكا»؟

– سافرت إلى «فرنسا» لأشتري منزلاً، قصرًا صغيرًا في الواقع، هل تشاركيني إياه؟ معي، ومع ابنتنا؟ ومدت أصابعها تتحسس بها ذقنه، وقالت:

– ماذا كنت ستفعل لو جئت إلى هنا بعد رجوعك، ولم تجدني؟

– كنت سأخرج في هدوء عن صوابي. قالها بشيء من الثبات.

– لا أعتقد ذلك...

– لا؟ أعتقد أنني كنت سأفعل... بل إن أبي كان يظن ذلك أيضًا...

– ماذا تعني؟ لقد اتصل بي هاتفيًا هذا الصباح، وأخبرني أنه تلقى مكالمة هاتفية من المستشفى تخطره بأنك كنت تنوين ترك المستشفى اليوم... وارتأى أبي أنني ينبغي أن أعلم بذلك.

– أوه، «جويل»!

– من حقك أن تقوليها مرات... ومرات...

– إذن، قد أثبت أبوك أنه ليس شريرًا إلى ذلك الحد. وتصلب فم «جويل» بعض الشيء، وقال:

– لست واثقًا بذلك، يعرف ما عليه عمله طوال تلك الفترة، وهذه طريقته التي عاملني بها باستمرار... لو أنك فقط لجأتِ إليَّ أنا منذ البداية..

– وكيف كنت أستطيع ذلك؟ وأومأ «جويل» برأسه، وقال:

– أعرف! ما الاسم الذي كنت تطلقينه عليّ؟ أناني وكاذب! يا إلهي، لقد دفعت ثمن ذلك، أما بالنسبة إلى أبي فإنني من باب حسن الظن أقول إنه وجد في مرض «سارة» وسيلة يمحو بها شعوره بالذنب نحو وفاة أمي، لقد كان يريد أن يساعدها حقًا، وإنني متأكد من ذلك.

– والآن؟

– والآن نتزوج بأسرع ما يمكن. ولمست رأسها بيدها، وقالت:

– أو لا يضايقك هذا؟ وابتسم «جويل» ابتسامة دافئة فيها شيء من التسامح، وقال:

– لماذا أتضايق؟ إنك تبدين وكأنك طفلة رضيعة! وتمتمت «راشيل» بسخرية:

– طفلة رضيعة نَمَتْ أكثر من اللازم! ورد «جويل»:

– ليس في نظري. وجذبها نحوه، وقبّل فروة رأسها الناعمة، وقال:

– سوف ينمو، ومع هذا فإنني أحبك على أية صورة يا «راشيل»... أنا لا أنكر أنني أحبك عندما تكونين عروسًا جميلة في شعرك الناعم الحريري، ليس المظهر هو ما يجتذبني لأني أحب شخصك أنتِ: أم طفلتي، ومغزى حياتي. تمتمت قائلة:

– سوف تبتهج «سارة» عندما تجد أن لها أمًا وأبًا. وأضاف «جويل» في رقة:

– وبيتًا كذلك. والآن هل تزيحين حقيبة الملابس هذه؟ أم أزيحها أنا؟ إنني منهك تمامًا، ولم أنم منذ ثلاثة أيام، إنك لا تعرفين مدى المشقة التي سببتها لي، ولا الليالي التي سهرتها. وسألته:

– هل أستحق كل ذلك؟ وابتسم ابتسامة عريضة، وقال في استسلام:

– دون أدنى شك.

تمت بعون الله